

## سورة القصص

هي مكية كلها على ما روى الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة ، وقال مقاتل :  
الإمام آية ٥٢ إلى ٥٥ مكية ، وإلا آية ٨٥ فقد نزلت بالجحفة أثناء الهجرة  
إلى المدينة .

وأيها ثمان وثمانون ، نزلت بعد المل .

ووجه مناسبتها لما قبلها أمور :

(١) إنه سبحانه بسط في هذه السورة ما أوجز في السورتين قبلها من قصص  
موسى عليه السلام وفصل ما أجمله هناك ، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء  
نبي إسرائيل الذي أوجب إلقاء موسى حين ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح ثم  
ذكر قتله القبطي ، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه بينته ، ثم  
مناجاته لربه .

(٢) إنه أجل في السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة ،  
وبسطه هنا أتم البسط .

(٣) إنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط ، وأجمله  
هنا في قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ » الآيات .

(٤) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز ذلك  
هنا ، وهكذا من المناسبات التي تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ  
مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ  
وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكَلِّمَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) .

### شرح المفردات

تتلو عليك : أى نزل عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تجبر واستكبر ، شيما : أى فرقا يستخدم كل صنف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ، ويفرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا ، يستضعف : أى يجعلهم ضعفاء مقهورين ، والطائفة هنا هم بنو إسرائيل ، ونمن : أى نفضل ، والأئمة : واحدهم إمام وهم من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ، ويقال مكّن له إذا جعل له مكانا موطأ مهدا يجلس عليه ، والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها ، وهامان وزير فرعون ، يحذرون : أى يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود من بنى إسرائيل .

### الإيضاح

(طسم) تقدم أن قلنا إن أجل الآراء فى هذه الحروف المقطعة أنها حروف استعملت أول الكلام للتنبيه ، كما استعملت (يا) فى النداء و(ألا) ونحوها للتنبيه ، وينطق بها بأسمائها هكذا (طاسين ميم) .

(تلك آيات الكتاب المبين) أى هذه آيات الكتاب الذى أنزلته إليك أيها الرسول واخفا جليبا كاشفا لأمر الدين وأخبار الأولين ، لم تقوله ولم تتخرصه كما زعم المشركون المنكرون له ورسالة من أوحى إليه . ثم ذكر ما هو كالدليل على أنه وحى يوحى وليس هو من وضع البشر فقال :

( تتلو عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ) أى تتلو عليك بعض أخبار موسى وبمحاكمته لفرعون وغلبته إياه بالحجة ، وإخبار فرعون وجبروته وطمانيته وكيف قابل الحق بالباطل ولم يُجِدْ معه البراهين الساطعة والمعجزات الواضحة ، فأخذناه أخذ عزيز مقتدر فكانت عاقبته الدمار والوبال وأغرِقَ ومن معه من جنده أجمعون ، تتلوها عليك تلاوة على وجه الحق كأنك شاهد حوادثها ، مبصر وقائمه ، تصف ماترى وتبصر عيانا ، لقوم يصدقون بك وبكتابك لتطمئن به قلوبهم وتُسلج به صدورهم ويعلموا أنه الحق من ربهم وأن سنته فيمن خالفك وعاداك من المشركين هي سنته فيمن عادى موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل ، وأن النصر دائما للمتقين ويخزي الله الكذابين : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ » .

وإنما جعل التلاوة للمؤمنين وهو يتلى على الناس أجمعين ، لبيان أنه لا يعتبر بها إلا من كان له قلب واع وأذن سامعة تذكّر وتتعض بأياته ، أما من أعرض عنه ، وأبى واستكبر ، وقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلا تفيده الآيات والنذر ، ولا يلقى له بالا ، ولا يعي ما فيه من حكمة ، ولا ما يسوقه من عبرة ، فهو على نحو ما حكى الله عنهم : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ » .

ثم فصل هذا الجمل ووضحه بقوله :

( إن فرعون علا في الأرض ) أى إن فرعون تجبر في مصر وقهر أهلها وجاوز الحدود في الظلم والعدوان وساس البلاد سياسة غاشمة .

ومما مكن له في ذلك ما بينه الله سبحانه بقوله :

( وجعل أهلها شيما ) أى وفرقهم فرقا مختلفة ، وأحزابا متعددة ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء ، كيلا يتفقوا على أمر ولا يجمعوا على رأى ، ويشغل بعضهم بالكيد لبعض ، وبذا يلين له قيادهم ، ولا يصعب عليه خضوعهم واستسلامهم ، وتلك هي سياسة الدول الكبرى في العصر الحاضر ، وذلك هو دستورها في حكمها

لمستمراتها ، وقد نقش حكماها في صدورهم واتجاههم في سياستهم « فرق تسد »  
وطالما أُجِدت مهمهم في سياسة تلك البلاد ، وهي أعظم نفعاً في البلاد التي يعمها الجهل  
ويطغى على أهلها حب الظهور ويزرون بالنفاق والتشور .

رُحِمَاكَ اللَّهُمَّ رَحْمَاكَ ، بسطت لعبادك سنتك في الأكوان ، وأبنت لهم طبيعة  
الإنسان ، وأنه محب للظلم والعدوان .

والظلم من شيم النفوس فإن تجرد ذا عفة فلمـلة لا يظلم  
( يستضعف طائفة منهم ) أى يجعلهم أدلاء مقهورين ، يسومهم الخسف ،  
ويعاملهم بالعسف ، وهم بنو إسرائيل .

ثم فسر هذا الاستضعاف بقوله :

( يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ) أى يذبح أبناءهم حين الولادة ، وقد وكل  
بذلك عيوناً تتجسس ، فكلما ولدت امرأة منهم ذكراً ذبحوه ، ويستحي إناثهم ،  
لأنه كان يتوجس خيفة من الذكران الذين يترسون مختلف الصناعات ، وبأيديهم  
زمام المال ، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة وغلبوا المصريين عليها ،  
والغلب الاقتصادي في بلد ما أشد وقعا وأعظم أثراً في أهلها من الغلب الاستعماري ،  
ومن ثم لم يشأ أن يقتل النساء .

روى السُّدِّيُّ أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت القدس حتى  
اشتعلت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل ، فسأل علماء قومه ،  
فأخبره الكهنة أنه سيخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يديه ، فأخذ  
يفعل ما قص علينا الكتاب الكريم .

قال الزجاج : والعجب من حرق فرعون ، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن  
كان صادقاً عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذباً فلا داعي للقتل .  
ولا يعنينا من أمر هذه الرواية شيء ، فسواء صحت أو لم تصح ، فإن السرِّ  
المعقول ما قصصناه عليك أولاً .

ثم علل اجتراحه لتلك الجرائم وإزهاقه للأرواح البريئة بقوله :

(إنه كان من المفسدين) ومن ثم سولت له نفسه أن يفعل ما فعل من تلك الفظائع وقتل سلائل الأنبياء بلا جريمة ارتكبوها ، ولا ذنب جنوه ، وقد كانت هناك وسائل عديدة ليصل بها إلى انقضاء شرور اليهود على حسب ما نزع ، وكان له فيها غنية عن سفك الدماء ، ولكن قساة القلوب غلاظ الأكباد تتوق نفوسهم إلى الولوع في الدم ويجعلونه الترياق الشافي لحزازات نفوسهم ، وسخائم أفئدتهم .

ثم ذكر ما أكرم به هذا الشعب وما أتاح له من السلطان الديني والديوي فأسسوا دولة عظيمة في بلاد الشام وصاروا يتصرفون في أرض مصر كما شاءوا فقال : (ويزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض) أي ويزيد أن نتفضل بإحساننا على من استضعفهم فرعون وأذلهم ، ونتجهم من بأسه ويزيهم في أنفسهم وفي أعدائهم فوق ما يحبون ، وأكثر مما يؤملون .

(وجعلهم أمة) مقتدى بهم في الدين والدنيا .

(وجعلهم الوارثين) لملك الشام لا ينازعهم فيه منازع ، وقد جاء في آية أخرى :

« وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا » وفي ثالثة « كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

(وتمكن لهم في الأرض) أي ونسلطهم على أرض مصر يتصرفون فيها كيفما

شاءوا بتأييدهم بكلمة الله ثم بالأنبياء من بعده .

ثم بين ما نال عدوهم من النكال والوبال فقال :

(وزرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أي وزى أولئك

لأقوياء والأغداء الألداء على أيدي بني إسرائيل من المذلة والهوان وما كانوا يتوقعونه من زوال الملك والسلطان على يد مولود منهم ، ولكن لا ينبغي حذر من قدر ، ففقد أحكم الله الذي جرى به القلم من القدم على يد هذا الغلام الذي احترز من وجوده وقتل بسببه ألوفا من الولدان ، وكان منشؤه ومرباده على فراشه وفي داره ، وغذاؤه

من طعامه وكان يذلل ويقتل ويقتل ويقتل ، وحفته وهلاكه وهلاك جنوده على يديه ، ليعلم أن رب السموات والأرض هو الغالب على أمره ، الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وخلاصة ما سلف :

(١) إن فرعون علا في الأرض . (٢) استضعف حزبا من أحزاب مصر .  
(٣) قتل الأبناء . (٤) استجيا النساء . (٥) إنه كان من المفسدين .  
وقد قابل سبحانه هذه الخمسة بخمسة مثلها تكريمة لبني إسرائيل :

(١) إنه من عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته :

(٢) إنه جعلهم أئمة مقدمين في الدارين .

(٣) إنه ورثهم أرض الشام .

(٤) إنه مكن لهم في أرض الشام ومصر .

(٥) إنه أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم

على أيديهم .

هذان عظيمة وضعف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار ، سنة الله

في خلقه وإن تجد لسنة الله تبديلا : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوُها بَيْنَ النَّاسِ » .

انظر إلى الدولتين الفارسية والرومية وما كان لهما من مجد بازخ وملك واسع ،

كيف دالت دولتهما وذهب ريحهما بظلم أهلها وتقسيم ملكهما ، ثم قامت بعدها

الدولة العربية وعاشت ما شاء الله أن تعيش ، ثم قام بعدها بنو عثمان وملكوا أكثر

ما كان بيد الأمة العربية ثم هزمت دولتهم وشاخت واستوتت عليها ممالك أوروبا .

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ

تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ  
وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ  
آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا  
كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَوْلَا لَا تَقْتُلُوهُ  
عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ  
أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ  
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتِ لِأَخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ  
لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ  
عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ  
كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ  
لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

### شرح المفردات

الوحي : الإلهام كما جاء في قوله : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » والخوف : غم  
يحصل بسبب توقع مكروه يحدث في المستقبل ، والحزن : ( بفتح الحين وضم فسكون  
كالرشد والرشد والشقم والسقم ) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل ، واليم :  
البحر ، والمراد هنا نهر النيل ، والالتقاط : أخذ الشيء فجأة من غير طلب له ، والمراد  
من الخطأ هنا : الخطأ في الرأي وهو ضد الصواب والمراد به الشرك والعصيان بالله ،  
وقرت العين به : فرحت به وسرت ، فارغا : أى خاليا من العقل لما دهمها من  
خوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد عدوه نحو ما جاء في قوله : « وَأَفْتَدَتْهُمْ

هَوَاءَ « أى خلاء لاعتقوله بها ، والإبداء : إظهار الشيء ، والربط على القلب : شده والمراد هنا تثبيته ، وقصيه : أى اقتفى أثره وتبغى خبره ، فبصرت به : أى أبصرت به ، عن جنب : أى عن بعد ، لا يشعرون : أى لا يدرون أنها أخته ، حرمتنا : أى منعنا ، يكفلون : أى يضمنون رضاعه والقيام بشئونه ، والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون ما ينفعه فى غذائه وتربيته ولا يقصرون فى خدمته .

## الإيضاح

بعد أن ذكر سبحانه أنه سيمن على بنى إسرائيل الذين استضعفوا فى الأرض ، أورد ذلك بتفصيل بعض نعمه عليهم فقال :

( وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ) أى وألمناها وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه ما أمكنا إخفاؤه عن عدوه وعدوك .

( فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تحزنى ولا تخافى ) أى فإذا خفت عليه من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون أولاد بنى إسرائيل اتباعاً لأمره أو من الجيران أن ينجسوا عليه إذا سمعوا صوته ، فألقيه فى النيل ولا تخافى هلاكه ، ولا تحزنى لفراقه ، وقد تقدم فى سورة طه بيان الكيفية التى ألقته بها فى اليم .

روى أن دارها كانت على الشاطئ فالتحذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً وألقته فى النيل وليس هناك من دليل على الزمن الذى قضته بين الولادة والإلقاء فى اليم . ثم وعدّها سبحانه بما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤه غبطة وسروراً ، وهو رده إليها وجعله رسولا نبيا فقال :

( إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ) أى إنا رادو ولدك إليك للرضاع وتكونين أنت مرضعه ، وابعثوه رسولا إلى هذا الطاغية وجاعلوه هلاكة ونجاة بنى إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه .

وهذه الآية اشتملت على أمرين : أرضعيه وألقيه ، ونهيين : لا تحزنى ولا تخافى ،

وخبرين : إنا رادوه إليه وجاعلوه . وبشارتين في ضمن الخبرين : وهما الرد والجمع  
من المرسلين ، حكى عن الأصمعي قال : سمعت أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله      قبّلت إنسانا بغير حله  
مثل الغزال ناعما في دله      فانتصف الليل ولم أصله

فقلت : فانتك الله مأفصحك ! قالت أو يعد هذا فصاحة مع قوله تعالى : وأوحية  
إلى أم موسى الآية ؟ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .  
ثم ذكر صدق وعده ومقدمات نجاته فقال :

( فالتقطه آل فرعون ) أى فأخذوه أهل فرعون أخذ اللقطة التى يعنى ٣٠  
وتصان عن الضياع صبيحة الليل الذى ألقى فيه بالتأبوت .

روى أن الموج أقبل به يرفعه مزة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار  
عند بيت فرعون ، فخرج جوارى امرأته إلى الشط فوجدن التأبوت فأدخلنه إليها  
وظنن أن فيه مالا ، فلما فتحنه وجدن فيه غلاما فوقعت عليها رحمته فأحبته .

ولما أخبرت فرعون به أراد أن يذبحه إذ قال إني أخاف أن يكون هذا من  
بنى إسرائيل وأن يكون هلاكنا على يديه ، فلم تزل تكلمه حتى تركه لها .  
ثم ذكر سبحانه أن العاقبة كانت ضد ما قصدت فقال :

( لئكون لهم عدوا وحزنا ) أى لتكون عاقبة أمره كذلك إذ أراد الله هذا ،  
وهذا كما تقول لآخر تؤنبه على فعل كان قد فعله وهو يظن نفسه محسنا فيه وأدى  
الأمر إلى مساواة وضيرّ قد لحقه : فعلت هذا لضر نفسك ، وهو قد كان حين الفعل  
راجيا نفعه غير أن العاقبة جاءت بخلاف ما يرجو ، وهذا جار على سنن العرب  
في كلامهم فيذكرون الحلال بالمآل ، قال شاعرهم :

والمنايا تربي كل مَرَضِعَةٍ      ودورنا لخراب الدهر تبثها

وقال آخر :

فللموت تغدو والودات سبخا لهذا      كما لخراب الدهر تبثي المساكن

فعاقة البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحا به ، وعاقة تغذية السخال الذبح وإن كانت الآن تغذى لتسمن .

والخلاصة — إن الله قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنا ، ويستبين لهم بطلان حذرهم منه .

وعداوته إياهم مخالفته لهم في دينهم وحملهم على الحق ، وحزنهم بزوال ملكهم على يديه بالفرق بعد أن يُظهر فيهم الآيات ولا يستجيبوا لدعوته ، فتحل بهم القوارع كما هي سنة الله في خلقه المكذبين .

ثم بين أن القتل الذي يفعله فرعون وهامان وجنوده لبني إسرائيل حق وطيش فقال :

( إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ) أى إن هؤلاء كان من دأبهم الخطأ وعدم حسن التصرف في العواقب ، ومن ثم قتلوا لأجله ألوفا ، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون .

ثم حكى سبحانه قول امرأة فرعون حين رآه فرعون وهم يقتله .

( وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك لا تقتلوه ) أى قالت تخاصم عنه وتحميه

إلى فرعون : إنه مما تقرّب به العيون وتفرح لرؤيته القلوب فلا تقتلوه .

ثم ذكرت العلة التي قالت لأجلها ما قالت .

( عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ) أى لعلنا نصيب منه خيرا ، لأنى أرى فيه

مخايل اليمين ودلائل النجاة ، كما قال الشاعر :

فى المهد ينطق عن سعادة جدّه أثر النجاة ساطع البرهان

أو نتخذه ولدا لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التي تجعله أهلا لتبني الملوك له ،

وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها .

ثم بين سبحانه أنهم لا يدرون خطأهم فيما صنعوا فقال :

( وهم لا يشعرون ) أى وهم لا شعور لهم بما خبأ لهم القدر وبما يتول إليه أمرهم

معة من عظام الأمور التي تؤدي إلى هلاكهم ، وإنما علم ذلك لدى غلام الغيوب فهو الذي يدري ما أراد بالتقاطهم إياه من الحكم البالغة ، والحجج القاطعة .  
وبعد أن أخبر سبحانه عن حال من لقيه موسى عليه السلام خبر عن حال من فارقه بقوله :

( وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ) أي إنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها شعاعا ، لما دهمها من الجزع والحزن وتوقع الهلاك الذي لامندوحة منه جريا على عادته مع أنداده ولداته ، ولولا أن عصمتها وثبتنا قلبها لأعلنت أمرها وأظهرت أنه ابنها وقالت من شدة الوجد (واولاده) وقد فعلنا ذلك لتكون من المصدقين بوعدنا : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

ثم أخبر عن فعلها في تعرف خبره بعد أن أخبر عن كتبها إياه بقوله :  
( وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ) أي وقالت لابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها : تنبئ أثره ، وتسمى خبره ، فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها تقصه وتتعرف حاله وأنها أخته .

ثم شرع سبحانه يذكر أسباب رده إليها فقال :

( وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ) أي ومنعنا موسى المراضع من أول أمره ، فقالت أخته حين رأت اهتمامه برضاعه : أحببون أن أرشدكم إلى أهل بيت يأخذونه ويتولون تربيته ويقومون بجميع شؤنه ولا يقصرون في خدمته والعناية بأمره .

روى عن ابن عباس أنها لما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها وقالوا لها : ما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت هم يفعلون ذلك رغبة منهم في سرور الملك ورجاء عطائه ، وبذا خلصت من أذاهم وذهبوا معها إلى منزلهم ودخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتيمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك

فاستدعت أم موسى وأحسنّت إليها وأعطتها العطاء الجزيل ، ثم سألتها أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت إن لى بملا وأولادا ولا أستطيع المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها إلى ما طلبت ، وأجرت عليها النفقة والصلات والكسا وجزيل العطاء ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا وهى موفورة العز والجاه والرزق الواسع ، وقد جاء فى الأثر « مثل الذى يعمل الخير ويحتسب كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » .  
وإلى هذا أشار سبحانه بقوله :

( فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ) أى فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون ، لتقر عينها بابنها إذا رجع إليها سليما ، ولا تحزن على فراقه إياها .  
( ولتعلم أن وعد الله حق ) أى ولتعلم أنّ وعد الله الذى وعدها حين قال لها : ( إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ) حق لامية فيه ولا خلف وقد شاهدت بعضه ، وقاست الباقى عليه .

وبرده إليها تحققت أنه سيكون رسولا ، فربّته على ما ينبغى لمثله من كامل الأخلاق وفاضل الآداب .

( ولكن أكثرهم لا يعلمون ) حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة فى الدنيا والآخرة ، إذ قد يكون الشيء بغيضا إلى النفوس ظاهرا محمود العاقبة آخر كما قال :  
« وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

وقد حدث هذا فى أمر موسى ، فقد أتى فى اليم ثم رد إلى أمه مكرما ثم كان له من الوجاهة فى الدنيا والآخرة ما كان .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ

يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شَيْعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى  
 الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ  
 إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ  
 إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا  
 لِمُجْرِمٍ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ  
 بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ  
 أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ  
 نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ  
 تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) .

### شرح المفردات

واحدة الأشد: شدة كأنهم ونعمة، والشدة: القوة والجلادة، وبلوغ الأشد:  
 استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتد به، والاستواء: اعتدال العقل وكاله،  
 ويختلف ذلك باختلاف الأقاليم والأزمان والأحوال، والحكم: الحكمة، والمدينة:  
 هي مصر، على حين غفلة: أي في وقت لا يتوقعون دخولها فيه، من شيعته: أي  
 ممن شايعه وتابعه في الدين وهم بنو إسرائيل، من عدوه: أي من مخالفه في الدين  
 وهم القبط، فاستغاثه: أي طلب غوثه ونصره، فوكره: أي فصر به بجمع يده، أي  
 بيده مجموعة الأصابع، قضى عليه أي قتله وأنهى حياته، من عمل الشيطان: أي  
 من تزيينه، مبين: أي ظاهر العداوة والإضلال، فاغفر لي: أي فاستر ذنوبي،  
 لما أنعمت عليّ: أي أقسم بعمك عليّ، ظهيرا: أي معينا، يترقب: أي ينتظر  
 ما يناله من أذى، استنصره: أي طلب نصره ومعونته، يستصرخه: أي يطلب

الاستغاثة برفع الصوت ، غوى : أى ضال ، يبطش : أى يأخذ بصولة وسطوة ،  
والجبار: هو الذى يفعل ما يفعل دون نظر فى العواقب ، من المصلحين : أى ممن  
يغيرون الإصلاح بين الناس ويدفعون التخاصم بالحسنى .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أفاض به على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من  
الهلاك بعد وضعه فى التابوت وإلقائه فى النيل وإنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى  
إسرائيل - أردفه بذكر ما أنعم به عليه فى كبره من إيتائه العلم والحكمة ثم إرساله  
رسولا ونبيا إلى بنى إسرائيل والمصريين ، ثم بذكر ما حصل منه من قتل المصرى  
الذى اختصم مع اليهودى بوكزه بجمع يده وكان ذلك سببا فى موته ، ثم طلبه المغفرة  
من ربه على ما فعل ، ثم تصميمة وعزمه ألا يناصر غويا مجرما ، ثم أعقب ذلك  
بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودى وقبطى آخر وقد هم موسى بإغاثته أيضا ، فقال  
له المصرى أنت تريد الإصلاح فى الأرض أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين؟ .

### الإيضاح

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) أى ولما  
قوى جسمه واعتدل عقله آتيناه فقها فى الدين وعلما بالشريعة كما قال تعالى: «وَأَذْكُرَنَّ  
مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ» وكما جزينا موسى على طاعته إيانا  
وإحسانه بصبره على أمرنا - نجزي كل من أحسن من عبادنا وأطاع أمرنا وانتهى  
عما نهيناه عنه .

وبعد أن أخبر بتبنيه للنبوذة ذكر ما كان السبب فى هجرته إلى مدين وتوالى  
الأحداث الجسام عليه فقال :

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) أى ودخل مصر آتيا من عين شمس  
فى وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة .

روى أنه دخلها مستخفياً من فرعون وقومه ، لأنه كان قد خالفهم في دينهم وعاب ما كانوا عليه .

ثم أبان ما حدث منه حينئذ فقال :

( فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى قفضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ) أى فوجد في مصر رجلين أحدهما من بني إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباح فرعون وكان قد طلب منه أن يحمل حطباً المطبخ فأبى ، فطلب الإسرائيلي من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى ، فضر به موسى بجمع يده في صدره وحسكه فقتله فقال : إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزوين الشيطان ووسوسته .

ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه فقال :

( إنه عدو مضل مبين ) أى إنه عدو فينبغى الحذر منه ، مضل لا يقود إلى خير بين العداوة والإضلال .

ثم أخبر بندم موسى على قتله نفساً لم يؤمر بقتلها بقوله :

( قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ) أى قال رب إني ظلمت نفسي بقتل نفس لا يحل قتلها ، فاغفر لي ذنبي واستره ولا تؤاخذني بما فعلت ، قال قتادة : عرف والله الخرج فاستغفروا ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه : إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، وإنما عده ذنباً وقال : ( إني ظلمت نفسي فاغفر لي ) من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .

روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق : ما أسألكم ، وأركبكم للكبيرة . سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الفتنة تجيء من ها هنا - وأوماً بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأتمم بعضكم يضرب رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذى قتل من

آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » .

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال :

( فغفر له ) أى فمفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه .

وبعدئذ ذكر ما هو كالعلة لما قبله فقال :

( إنه هو الغفور الرحيم ) أى إنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه ،

المتفضل عليه بالعمو عنها ، الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ، ورجع عن حوبته .

ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال :

( قال رب بما أنعمت علىّ فإن أكون ظهيراً للمجرمين ) أى قال رب اعصمى

بمحق ما أنعمت علىّ بفك عن قتل هذه النفس لأمتنعن عن مثل هذا الفعل ، ولن أكون معيناً للمشركين فأصحبهم وأكثر سوادهم ، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركو به كالولد مع الوالد ، ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون .

وقد يكون المراد لأمتنعن عن مظاهرة من تتول مظاهرته إلى الجرم والإثم

كمظاهرة الإسرائيلى التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تَرَوْا كُنُوزًا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال :

( فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له

موسى إنك لغوى مبين ) أى فصار موسى فى تلك المدينة التى قتل فيها القبطى خائفاً

من جنابته التى جناها بقتله النفس التى قتلها ، وصار يتحسس الأخبار ويسأل

عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطى وما هم بالغوه به ؟ وداخلته الهواجس

خيفة أن يقتلوه به ، وإذا الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على المصرى

يطلب منه العوث والعون على مصرى آخر فقال له موسى إنك لذو غواية وضلال لاشك فيه ، وقد تبينت ذلك بقتالك أمس رجلا واليوم آخر ، ثم دنا منهما . ( فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ) أى فلما أراد موسى أن يأخذ الفرعونى عدوهما بالشدّة والعنف قال له منكرا : أتريد أن تفعل معى كما فعلت بالأمس وتقتلنى كما قتلت من قتلت ؟ وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

( إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ) أى وما تريد إلا أن تكون قاهرا عاليا فى الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر فى العواقب ، ولا تريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيه صلاح أهلها ودفعت تخصمهم بالحسنى .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ  
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا  
خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ  
مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ  
وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ  
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)  
فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ  
فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ  
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ

نَجَوْتِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ  
 مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى  
 ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِي حَبِيبٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ  
 وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ سَتَعْبُدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ  
 ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ  
 وَكِيلٌ (٢٨)

## شرح المفردات

أقصى المدينة : أى أبعدها مكانا ، يسعى : أى يسرع ، اللأ : أشرف الدولة  
 ووجوهها ، يأتمرون بك : أى يتشاورون فى أمرك قال الأزهري أتمم القوم وتأمروا إذا  
 أمر بعضهم بعضا كما قال : « وَأَتَمُّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ » وقال الثوري تواب :

أرى الناس قد أهدوا شيمة وفى كل حادثة يؤتمروا

يتروى : أى يلتفت يمنة ويسرة ، توجه إلى الشيء : صرف وجهه إليه ، تلقاء  
 مدين : أى جهتها ، ورد : أى وصل ، والمراد بماء مدين : البئر التي كانوا يستقون  
 منها ، أمة : أى جماعة ، تذودان : أى تطردان غنهما عن الماء خوفا من السقاة  
 الأقوياء ، قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدرى بأى عصا تذود

ماخطبكما : أى ما شأنكما ولم لاتردان مع هؤلاء ؟ قال رؤبة : يا عجباً ماخطبهُ  
 وخطبى ؟ يصدر الرعاء : أى يصرفون مواشيهم عن الماء ، والرعاء : واحدهم راع ، تولى :  
 أى انصرف ، والظل : ظل شجرة كانت هناك ، والخير يكون بمعنى الطعام كما فى الآية  
 وبمعنى المال كما قال : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » وبمعنى القوة كما قال : « أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ »

تَبَعِ « وبمعنى العبادة كقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » فقير : أى محتاج والاستحياء : شدة الحياء ، ايجزيك : أى ليثيبك ، والقصص : الحديث المقصوص أى الخبر به ، أنكحك : أزوجك ، ويقال أجرته : أى كنت له أجيراً كما تقول أبوته أى كنت له أباً ، والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة ، قال زهير ابن أبى سلمى :

لمن الديار بقنة الحِجْرِ أَقْوِينَ من حِجَجٍ ومن دهر

أشق عليك : أى أدخل عليك مشقة ، الأجلين : أى الأطول والأقرب ، فلا عدوان : أى فلا حرج ، وكيل : أى شهيد .

### المعنى الجملى

اعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون وبطانته إليه ، فآتمر هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله ، وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه ، فأسرع إليه يخبره الخبر وينصحه بالهرب ، فاتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ما قصه الله علينا فى هذه الآيات ، إلى أن رجع إلى مصر وقد أوفى النبوة وهو قافل فى طريقه .

### الإيضاح

( وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى قال يا موسى إن الملائمات يأتون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ) أى جاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم ، يسرع للحاق بموسى إشفاقاً وخوفاً عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : يا موسى : إن الملك و بطانته وأشرف دولته يدبرون لك المكائد ، وينصبون لك الحبال ، يريدون أن يقتلوك ، فالبدار البدار والهرب

الهرب قبل أن يقبضوا عليك وَيُنْفِذُوا مَا دَبَرُوهُ وَيَقْتُلُوكَ ، فأخرج من المدينة مسرعاً  
وإني لك لناصح أمين .

فانتصح بنصحه وتقبل قوله .

( فخرج منها خائفاً يترقب ) أى نخرج من مدينة فرعون خائفاً يترقب لحوق  
الطالبين ويتلفت يمينا ويساراً وينظر أيتبعه أحد ؟ .

ثم لجأ إلى الله تعالى علماً منه أن لاملجأ إلا إليه .

( قال رب نجني من القوم الظالمين ) أى قال : رب نجني من هؤلاء الذين من  
دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور في غير مواضعها ، فيقتلون من لا يستحق القتل  
ومن لا يجرم إلى أحد ، فاستجاب الله دعاءه ووقفه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو  
مدين ، روى أن فرعون لما بعث في طلبه قال : ( اركبوا نسيات الطريق ) فانبثوا  
فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالاً فقاتهم ونجا من بقيهم .

ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

( ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ) أى ولما اتجه

نحو مدين ماضياً إليها شاخصاً عن مدينة فرعون ، قال : رب اهدني إلى سواء  
السبيل ، وأرشدني إلى الطريق القويم ، ونجني من هؤلاء الظلمة ؛ وقد قال هذا  
توكلاً على الله وثقةً بحسن توفيقه ، وقد كان لا يعرف الطريق ، فعن له ثلاث طرائق  
فسار في الوسطى وأخذ طالبوه في الآخرين ، وقالوا : المرئيب لا يسلك أعظم الطرق ،  
بل يأخذ بنسياتها ( أضيقتها غير المشهور منها ) وقد روى أنه بقى ثمانى ليال وهو حاف  
لا يطعم إلا ورق الشجر ، إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها .

ثم ذكر سبحانه ما جرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

( ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين

تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ) أى ولما  
وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يردّه رعاء الشاء فوجد جماعة منهم

يسقون نعمهم ومواسيهم ، ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها، فلما رآهما موسى كذلك رقى لهما ورحمهما، قال ما خبركما لم لاتردان الماء مع هؤلاء القوم ؟ فأجاباه ، قالتا : لانسى غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى ، وأبونا شيخ كبير لا يستطيع السقى بنفسه ، فحجن نلجأ إلى مآرى ، تشرب مواشينا فضل الماء .

ثم ذكر ما قبله بعد أن سمع هذا القصص

( فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير ) أى فسقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيم ويستريح وناجى ربه قائلاً : إني لاحتاج إلى شيء تنزله إلى من خزائن جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال : لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شق تمر ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع .  
فجاءه الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه .

( فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليحزبك أجر ما سقيت لنا ) أى فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حياء قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا ، قال عمرو بن ميمون : ولم تكن سلفعا من النساء ( جريئة على الرجال ) خَرَّاجَةٌ وَلَا جَعَّةٌ .

وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعلتها بالجزاء حتى لا يتوهم من كلامها شيء من الريبة ، كما أن في كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والنفة كما لا يخفى .

وقد اختلف في الأب من هو؟ فقيل هو شعيب عليه السلام وهو بعيد كل البعد ، لأن شعيباً كان قبل موسى بزمن طويل بدليل قوله تعالى لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » . وقد كان هلاك قوم لوط في عصر الخليل عليه السلام كما نص

على ذلك الكتاب الكريم ، وكان بين إبراهيم وموسى ما يزيد على أربعمائة سنة ،  
 وفي كتب اليهود أن اسمه يثرو ؛ وفي التوراة في الفصل الثاني من السفر الثاني مانصه :  
 ولما سمع بهذا الخبر ( خبر قتل القبطى ) طلب أن يقتل موسى فهرب من بين  
 يديه وذهب إلى مدين وجلس على بئر ماء ، وكان للكاهن مدين سبع بنات فجاءت  
 وأدلت الدلاء وملأت الأحواض لسقى غنم أبيهن ، فلما جاء الرعاة طردوهن ، فقام  
 موسى فأغاثهن وسقى غنمهن ، فلما جئن إلى رهوئيل أبيهن قال : ما بالكن أمرعن  
 الجىء اليوم ؟ الخ .

وفي الفصل الثالث : وكان موسى يرعى غنم يثرو حميه كاهن مدين .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا في الأجر .  
 ( فلما جاءه وقص عليه القصة قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ) أى فلما جاء  
 موسى هذا الشيخ وحدته حديثه مع فرعون وآله في كفرهم وطفيتهم وإذلالهم للعباد  
 وتأمروهم على قتله وهربه منهم بعد الذى علمه - قال له : لا تخف من حولهم وطولهم ،  
 إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لاسلطان لهم علينا ، ولسنا  
 في دائرة ملكهم .

ولما أمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

( قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين ) أى  
 قالت واحدة من بناته : استأجر موسى ليرعى عليك ماشيتك ، فإن خير من استأجره  
 للارعى القوى على حفظ الماشية والقيام عليها في إصلاحها وصلاحتها ، الأمين : الذى  
 لا تخاف حياته فيما تأمنه عليه منها .

ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة ، لأنه متى اجتمعت  
 هاتان الصفتان : الأمانة والكفاية في القيام بأداء أمر من الأمور تكفل عمله بالظفر  
 وكفل له أسباب النجاح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شيب ، وصاحب يوسف فى قوله : «عَسَى أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ يَتَّخِذَهُ وَلَدًا» وأبو بكر فى عمر :

ولما أعلمت البنت الشيخ بذلك :

(قال لى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى قال أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى : لى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى الحاضرتين أمامك ، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما ، على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنوات برعى لى فيها غنمى فإن أتممت الثمانى السنين التى شرطتها عليك فجعلتها عشرًا فأحسان من عندك ، وما أحب أن أشاقك بمناقشة أو مراعاة أوقات ولا إتمام عشر ولا غير ذلك ، وإنك ستجدنى إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا .

وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل ، فقد عرض عمر ابن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عمر «لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر» ، الحديث أخرجه البخارى .

فأجابه موسى :

(قال ذلك بينى وبينك) أى قال ما شرطت على فلك ، وما شرطت من تزوج إحداهما فى والأمر على ذلك لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت على ولا أنت عما شرطت على نفسك .

ثم فسر هذا بقوله :

(أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على) أى أى المدتين قضيت ، الثمانى الحجج أو العشر و فرغت منها فوفيتكها برعى عندك وما شئتك فليس لك أن تطالبنى بأكثر منها .

روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أى الأجلين قضى موسى قال: أوفاهما وأبرهما » رواه الخطيب في تاريخه .

ثم جعل الله شهيدا على صدق ما يقول كل منهما فقال :  
( والله على ما نقول وكيل ) أى والله شهيد على ما أوجب كل منهما على نفسه لصاحبه .

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا  
قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ  
مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ  
الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا  
وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) أَسْلَكَ يَدَكَ  
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ  
الرَّهْبِ فذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَكِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا  
فَاسِقِينَ (٣٢) .

### شرح المفردات

قضى الأجل : أى أتم المدة الضرورية بينهما ، آنس : أى أبصر بإصدار العين  
لاشبهة فيه ، جذوة : أى عود غليظ فى رأسه نارا ، تصطلون : أى تستدفنون ،  
والبقعة : القطعة من الأرض على غير هيئة التى بجانبها ، والجانب : الجهة الصغيرة التى  
توجد فى كثير من الدور ولا تؤدى ، ولم يعقب : أى ولم يرجع ، أسلك يدك : أى

أدخلها ، والجيب : الفتحة في التمييز ونحوه من حيث يخرج الرأس ، سوء : أى عيب ، والرهب : الحفاة .

### المعنى الجملى

بعد أن قضى موسى أئم الأجلين وأوفاهما عزم على الرحيل إلى مصر لزيارة أهله وذوى قرابته ، وبما جراه على ذلك طول مدة الجناية وظنه أنه قد نسى أمره وكأنه أصبح فى خبر كان .

### الإيضاح

( فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا على آتيكم منها بخبر أو جدوة من النار لعلمكم تصطلون ) أى فلما وفى موسى صاحبه الأجل الذى اتفق عليه مع حبه تحيل بأهله وما كان معه من النعم التى وهبها له صبره وسلك بهم الطريق فى ليلة مطرة وظلمة باردة ونزل منزلا جعل كالأورى زنده لا يضيء شيئا ، فعجب لذلك ، وبينما هو كذلك رأى نارا تضىء عن بعد فقال لأهله انتظروا قليلا ، إني أبصرت نارا على آتيكم منها بخبر الطريق وكانوا قد ضلوا عنه ، أو آتيكم بقطعة من الخطب فيها نارا لتستدفئوا بها من البرد وكان الوقت شتاء .

( فلما أتاهما نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ) أى فلما جاء إلى النار التى أبصرها من جانب الطور فإياه ربه من جانب الوادى الأيمن : أى عن يمين موسى فى البقعة المباركة من ناحية الشجرة : يا موسى إني أنا الله ربك ورب العالمين جميعا .

وقد خلق الله فيه علما يقينيا بأن التكلم هو الله تعالى ، وأن ذلك الكلام كلامه ، وقد جعلت الشجرة مباركة ، لأنه تعالى كلم موسى هناك وبمته نبيا .

ثم أمره الله أن يلقى عصاه لذيبة آية بقوله :

(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ) أَي وَنُودِي  
بأن ألق عصاك فألقاها فصارت حية تسمى ، فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان  
من الحيات ، لسرعة عدوها وخفة حركتها - ولَّى هاربا منها ولم يرجع .  
ثم نودي بما يهدى روعه :

(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ) أَي يَا مُوسَى أَقْبِلْ إِلَى وَلَا تَخَفْ  
بما تهرب منه ، فإنك آمن من أن ينالك سوء ، إنما هي عصاك أردنا أن نريك فيها  
آية كبرى ، لتكون عونك لدى الطاغية الجبار فرعون ملك مصر .  
ثم أراه آية أخرى زيادة في طمأنينته وأمره بقوله :

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ) أَي أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِ  
قَمِيصِكَ تَخْرُجْ وَلَهَا شِعَاعٌ يَضِيءُ مِنْ غَيْرِ عَيْبٍ وَلَا بَرَصٍ .  
ولما اعتري موسى الخوف من العصا تارة، ومن الدهشة بشعاع يده مرة أخرى ،  
أمره ربه أن يضع يده على صدره ليزول ما به من الخوف فقال :

(وَاضْمِمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ) أَي وَضِعْ يَدَكَ عَلَى صَدْرِكَ يَذْهَبُ مَا بَكَ  
مِنْ خَوْفٍ ، كَمَا يَشَاهِدُ مِنْ جَالِ الطَّائِرِ ، إِذَا خَافَ نَشَرَ جَنَاحِيهِ ، وَإِذَا أَمِنَ وَاطْمَأَنَّ  
ضَمَّهَا إِلَيْهِ ، وَكَانَ مُوسَى يَرْتَمِدُ خَوْفًا إِذَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَإِذَا مِنَ الثَّعْبَانِ .  
قال ابن عباس : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه .

ثم ذكر فذلكت لما تقدم بقوله :

(فَذَانِكَ بَرَهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمِثْلَهُ ) أَي فَمَا تَقَدَّمَ مِنْ جَعْلِ الْعَصَا  
حِيَةً تَسْمَعُ وَخُرُوجِ الْيَدِ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ بَعْدَ وَضْعِ الْيَدِ فِي الْجَيْبِ - دَلِيلَانِ  
وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ رَبِّكَ وَصِحَّةِ نَبْوَةِ مَنْ جَرَّ بِأَعْلَى يَدَيْهِ ، أَرْسَلْنَاهَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .  
ثم ذكر العلة في إظهار الآيات لهم بقوله :

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ) أَي إِنَّهُمْ قَوْمٌ خَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ، مُخَالِفُونَ

لأمره ، منكرون لكل دين جاء به الرسل ، فكانوا جديرين بأن ترسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين .

قَالَ رَبُّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَتَشِدُّ عَضُدُكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتَمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

### شرح المفردات

الردء : العون ، يقال ردأته على عدوه ، أى أعنته عليه ، قال الشاعر :

ألم تر أن أصرمَ كان ردئى وخيرَ الناسِ فى قُلِّ ومال

يصدقنى : أى يوضح ما قلته وقيم عليه الأدلة ويجادل المشركين ، والعضد :

ما بين المرفق إلى الكتيف ، والمراد بشد العضد : التقوية والإعانة . قال طرفة :

بنى لبيئى لسائمُ بيدٍ إلا يداً ليست لها عضدٌ

والسلطان : التسلط والغلبة ، مفترى : أى مخلوق ، عاقبة الدار : أى العاقبة

المحمودة فى الدار الدنيا التى تنفضى إلى الجنة .

### المعنى الجملى

اعلم أنه لما قال سبحانه لموسى فذاتك برهاتان من ربك علم أنه سيذهب بهذين

البرهاتين إلى فرعون وقومه — حينئذ طلب منه أن يؤتبه ما يقوى به قلبه ويزيل

خوفه من فرعون ، لأنه إنما خرج من ديار مصر فرارا منه وهربا من سطوته ، فيرسل معه أخاه هرون وزيرا فأجابه إلى ما طلب ، وأرسله هو وهرون إلى فرعون وملائته ومعهما المعجزات الباهرة ، والأدلة الساطعة ، فلما عاينوا ذلك وأيقنوا صدقه لجئوا إلى العناد والمكابرة فقالوا ما هذا إلا سحر مفتعل ، وما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، فقال لهم موسى : ربي أعلم بالهتدى منا ومنكم وسيفصل بيني وبينكم ويجعل النصير والتأييد للصالحين من عباده .

### الإيضاح

(قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون. وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون ) أى قال يارب إني قتلت من قوم فرعون نفسا فأخاف إن أتيتهم ولم أُن عن نفسى بحجة أن يقتلوني ، لأن ما فى لسانى من عقدة يحول بينى وبين ما أريد من الكلام ، وأخى هرون هو أفصح منى لسانا وأحسن بيانا ، فأرسله معى عوننا يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، ويحجب عن الشبهات ، ويجادل هؤلاء الجاحدين المعاندين ، وإني أخاف أن يكذبونى ولسانى لا يطاوعنى حين الحاجة .

فأجابه سبحانه إلى ما طلب .

( قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطانا فلا يصلون إليك ) أى سنقوم بك ونعينك بأخيك ونجعل لك تسليطا عظيما وغلبة على عدوك ، فلا يصلون إليك بوسيلة من وسائل الغلب .

( بآياتنا أتتكم ومن اتبعكم الغالبون ) أى أتتكم ومن تبعكم الغالبون بحججنا وسلطاننا الذى نجعله لك .

وفى هذا دليل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشئ مما هددهم به لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين أنفسهم فى سبيل الله .

ثم أبان ما صدر من فرعون عقب مجيء موسى إليه فقال :

( فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مغتري وما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين ) أى حين جاء موسى بالحجج البالغة الدلالة على صدق رسالته - فرعون وملائه ، قالوا ما هذا إلا سحر افتريته من عندك وانتحلته كذبا وبهتاناً ، وما سمعنا بهذا الذى تدعوننا إليه من عبادة إله واحد فى أسلافنا وآبائنا الذين مضوا من قبلنا . وهذا تحكيم لعادة التقليد التى أضلت كثيرا من الناس ، على أنهم قد كذبوا وافترخوا فإنهم سمعوا بذلك فى عهد يوسف عليه السلام ( وما بالهدى من قديم ) فقد قال لهم الذى آمن : « يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَتَقَدَّمَ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ » .

ولما كذبوه كفرا وعنادا وهم الكاذبون رد عليهم بما أشار إليه بقوله :

( وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ) أى وقال موسى مجيبا فرعون وملائه : ربى أعلم بالحق منا يا فرعون من المبطل ، ومن الذى جاء بالحق الذى يوصل إلى سبيل الرشاد ، ومن الذى له العقبى المحمودة فى الدار الآخرة ؟ .

وفى هذا الأسلوب من أدب الخطاب فى الحجاج والمناظرة ما لا يخفى ، فهو لم يؤكد أن خصمه فى ضلال كالم ينسبه إلى نفسه بل رده بينهما وهو يعلم أنه لأيهما ، وعلى هذا النحو جاء الخطاب من النبى صلى الله عليه وسلم للمشركين بقوله : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

ثم علل هذا بأن سنة الله قد جرت بأن الخذول هو الكاذب فقال :

( إنه لا يفلح الظالمون ) أى إنه لا ينجح الكافرون ولا يدركون طليبتهم ، وفى هذا إيماء إلى أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة ، بل يحصلون على ضد ذلك ، وهذا غاية الزجر والتهديد لكفهم عن العناد .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي  
يَاهَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي  
لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ  
وَوَضَعُوا أَنفُسَهُمْ إِلَيْنَا لِأَيُّرْجِعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ  
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ  
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ  
الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ  
مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَاطًا لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ  
يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)

### شرح المفردات

هامان : وزير فرعون ، صرحا : أى قصرًا عاليًا ، أطلع : أى أصدد وأرتقى ،  
فنبذناهم : أى طرحناهم ، أئمة : واحدٌهم إمام ، وهومن يقتدى به فى الدين أوفى الدنيا ،  
يدعون إلى النار : أى إلى ما يوجبها من الكفر والمعاصى ، لعنة : أى طردا من  
الرحمة ، من المقبوحين : أى الخزيين ، يقال قبحه الله : أى نجاه من كل خير ،  
وَقَبِحَتْ وَجْهَهُ وَقَبِحَتْ بِمَعْنَى ، قال الشاعر :

ألا قبح الله البراجم كلها      وقبح يرُبوعا وقبح دارِما

الكتاب : هو التوراة ، القرون الأولى : هم قوم نوح وهود وصالح ، بصائر : واحداها  
بصيرة ، وهى نور القلب للتمييز بين الحق والباطل .

## المعنى الجملى

بعد أن رغب موسى فرعون وقومه في التوحيد والنظر في الكون تارة ورهبهم من عذاب الله وشديد نكاله تارة أخرى - أجابه فرعون بتلك المقالة التي تدل على الجهل المطبق ونقصان العقل ، وأنه بلغ غاية لاحد لها في الإنكار وأنه لامطمع في إيمانه ، لعنوه وطغيانه واستكباره في الأرض حتى قال ما قال ، ومن ثم كانت عاقبته في الدنيا الهلاك بالفرق هو وجنوده واللعن من الله والناس، وفي الآخرة الطرد من رحمة الله .

ثم أخبر سبحانه أنه آتى موسى التوراة وجعلها نورا للناس يهتدون بها وتكون لهم تذكرة من عقاب الله وشديد عذابه .

## الإيضاح

( وقال فرعون يأيتها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ) أى قال يأيتها القوم ما علمت لكم فى أى زمن إلهها غيرى كما يدعى موسى ، والأمر محتمل أن يكون وسأحقق ذلك لكم ، وهذا كلام ظاهره الإنصاف ليتوصل بذلك إلى قبولهم ما يقول لهم بعد ذلك فى شأن الإله وتسليمهم إياه ، اعتمادا على ما رأوا من عظيم نَصَفَتَهُ فى القول .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان قالهما فرعون ( ما علمت لكم من إله غيرى ) وقوله : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » كان بينهما أربعون عاما ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

وخلاصة مقاله — لا علم لى رب غيرى فتعبده وتصدقوا قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله ربنا غيرى ومعبودا سواى .

ونحو الآية قوله : « نَحْشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » وقوله : « لَنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » .

قال الرازي : ليس مراده من ادعاء الألوهية أنه خالق السموات والأرض والبحار والجبال وخالق الناس ، فإن العلم بامتناع ذلك واضح لكل ذى عقل ، بل مراده بذلك وجوب عبادته ، فهو ينفى وجود الإله ويقول : لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا مملئكمهم وينقادوا لأمره اه يتصرف .

ثم خاطب وزيره أمرا له على سبيل التهمك أمام موسى ، ليشكك قومه في صدق مقالته .

( فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ) أى فاصنع لى آجراً واجعل لى منه قصرا شائخا وبناء عاليا أصد وأرتقى إلى إله موسى الذى يعبد فى السماء ، ويدعى أنه يؤيده وينصره وهو الذى أرسله إلينا .

وبمعنى الآية قوله : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لى صَرْحًا لَعَلَّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إلهِ مُوسَى وَإِنى لأظنه كاذبًا » .

ثم زاد قومه شكاً فى صدقه بقوله :

( وإنى لأظنه من الكاذبين ) أى وإنى لأظنه كاذباً فيما يدعى من أن له معبوداً فى السماء ينصره ويؤيده وأنه هو الذى أرسله .

ثم ذكر سبحانه ما هو كالسبب فى العناد والجحود فقال :

( واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ) أى ورأى هو وجنوده كل من سواهم فى أرض مصر حقيراً ، عتواً منهم على ربهم ، وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ولا يثابون ولا يعاقبون ، ومن ثم ركبوا أهواءهم ولم يعملوا أن الله لهم بالمرصاد ، وأنه مجازيهم على خيبت أعمالهم وسي أقوالهم .

ثم أخبر بما نالهم من عقاب الدنيا بعد أن توعدهم بعقاب الآخرة فقال :

( فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ) أى فجمعنا فرعون وجنوده من القبط فألقيناهم جميعاً فى البحر .

وفي هذا ما لا يخفى من الدلالة على عظم شأن الخالق وكبريائه وسلطانه وشديده  
اجتقاره لفرعون وقومه واستقلاله لهم وإن كانوا عددا كبيرا وجنا كبيرا ، فما مثلهم  
إلا مثل حصيات صغار تذفها الريح من يده في البحر .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وقومه بالنظر والاعتبار والتأمل في العواقب  
ليعلموا أن هذه سنة الله في كل مكذب برسوله فقال :

( فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ) أى فانظر أيها المعتبر بالآيات ، كيف كان  
أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وكفروا بربههم وردوا على رسوله نصيحته -  
ألم نهتكمهم ونورت ديارهم وأموالهم أولياءنا ونحوهم ما كان لهم من جنات وعيون  
وكنوز ومقام كبير بعد أن كانوا مستضعفين ، قُتِلَ أبناؤهم وتَسَحَّجُوا نساؤهم ، وإنا بك  
وبمن آمن بك فاعلون ، فمخولوك وإياهم ديار من كذبك ورد عليك ما أتيتهم به من  
الحق ، وأموالهم بعد أن تستأصلوهم قتلا بالسيف - سنة الله في الذين خلوا من قبلك .  
ثم ذكر ما يوجب سوء عاقبتهم وعذابهم في النار فقال :

( وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ) أى وجعلنا فرعون وقومه أئمة يقتدى بهم  
أهل العتو والكفر بالله ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي ، وتدسية النفوس  
بالفسوق والآثام التي تلقى بها أهلها في النار .

وما كفاهم أن يكونوا ضالين كافرين بالله ورسوله ، بل دأبوا على إضلال سوام  
وتحسين العصيان لهم ، وبذا قد ارتكبوا جريرتين ، فبأوا بجزأين : جزاء الضلال  
وجزاء الإضلال ، وقد جاء في الحديث : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر  
من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها  
إلى يوم القيامة » .

ثم ذكر أنه لا نصير ولا شفيع في ذلك اليوم فقال :

( ويوم القيامة لا ينصرون ) أى ويوم القيامة لا يجدون نصيرا يدفع عنهم عذاب

الله إذا خاف بهم ، وقد كانوا في الدنيا يتناصرون ، فكان لهم مطمح في النصره يومئذ على حسب ما يعرفون .

ثم ذكر ما هو كالفلكة لما تقدم وبين سوء حالهم في الدارين فقال :

( وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ) أى وأزمننا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيًا وغضبنا منا عليهم ومن ثم قضينا عليهم بالهلاك والبوار وسوء الأحداث ، ونحن مُتَّبِعُوهُمْ لعنة أخرى يوم القيامة ، فحزوم الخزي الدائم ومهينوم الهوان اللازم الذى لا فكاك عنه .

ثم بين سبحانه الحاجة التى دعت إلى إرسال موسى ليكون كاتبوطة لبيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

( ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون ) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفصلنا فيها الأحكام التى فيها سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم من بعد ما أهلكنا الأمم التى من قبلهم كقوم نوح وهود وصالح ، ودرست معالم الشرائع وطمست آثارها واختل نظم العالم وفسا بينهم الشر ورفع الخير . فاحتاج الناس إلى تشريع جديد يصلح ما فسد من عقائدهم وأفعالهم ، بتقرير أصول فى ذلك التشريع تبقى على وجه الدهر ، وترتيب فروع تتبدل بتبدل العصور واختلاف أحوال الناس ، وفيها التذكير بأحوال الأمم الخالية ليكون فى ذلك عبرة للناس ، ونور لقلوبهم ، تبصر به الحقائق وتميز بين الحق والباطل ، بعد أن كانوا فى عمية عن انهم والإدراك ، وتهديدهم إلى ما يوصلهم إلى القرب من ربهم ونيل رضوانه ومغفرته ورحمته ، ليتذكروا نعم الله عليهم فيشكروه عليها ولا يكفروا بها .

قال أبو سعيد الخدرى : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة

على موسى غير القرية التي مسخت قردة ، ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا  
مُوسَى السِّكِّينَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ  
مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ  
ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥)  
وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا  
مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ  
مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ  
آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

### شرح المفردات

الغربي : هو الجبل الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة  
لموسى ، قضينا : أى عهدنا إليه وكلفناه أمرنا ونهينا ، الأمر : أى أمر الرسالة ،  
الشاهدين : أى الحاضرين ، فتطاول عليهم العمر : أى بعد الأمد ، ونحوه : « فَطَالَ  
عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَحَسَّتْ قُلُوبُهُمْ » ثاويًا : أى مقبلاً . قال العجاج :

\* فبات حيث يدخل الثوى \* أى الضيف المقيم ، أهل مدين : أى قوم شعيب  
عليه السلام ، مصيبة : أى عذاب الدنيا والآخرة ، ولولا الثانية بمعنى هلا وتفيد  
تمنى حصول ما بعدها والحث عليه .

### المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أنه أرسل موسى بعد أن أهلك القرون الأولى  
ودرست الشرائع واحتيج إلى نبي يرشد الناس إلى ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم

أردف ذلك ببيان الحاجة إلى إرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لمثل تلك الدواعى التى دعت إلى إرسال موسى عليه السلام ، لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولأن رحمته اقتضت ألا يعذب أحدا إلا إذا أرسل رسولا ، ويتضمن ذلك كون القرآن وحيا من عند الله ، لأن ما فصل فيه من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها ، وقد اتفق كلاهما فتبين أنه بوحى من علام الغيوب .

## الإيضاح

(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) أى وما كنت حاضرا بجانب الجبل الغربى الذى وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى حين عهدنا إليه أمر النبوة ، وما كنت من جملة السبعين الذين اختيروا لسماع تفاصيل ذلك الأمر الذى أوحينا به إلى موسى حتى تخبر به كله على الوجه الذى أتيناك به فى هذه الأساليب المعجزة .

وخلاصة ذلك — إن إخبارك بالغيوب الماضية التى لم تشهدها وقد قصصتها كأنك سامع راء لها وأنت أى لا تقرأ ولا تكتب ، وقد نشأت بين قوم أميين لا يعرفون شيئا من ذلك — هو من أعظم البراهين على نبوتك ، وإن إخبارك بذلك إنما هو بوحى من الله كما قال : « أَوَلَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » .

(ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر) أى ولكننا أنشأنا من عهد موسى إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر إلى أن وجد القرن الذى أنت فيه فدرست العلوم فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى وأرسلناك بما فيه سعادة البشر .

والخلاصة — إنك ما كنت شاهدا موسى وما جرى له ولكننا أوحينا إليك ، وفى هذا تنبيه إلى المعجزة كأنه قال : إن فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله — لدلالة ظاهرة على نبوتك .

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال :

(١) ( وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ) أى وما كنت مقبلا بين أهل مدين تتلقف القصة من شاهدها ، وتقرؤها عليهم بطريق التعلم منهم كما يقرأ المتعلم على معلمه ، فتفهم أخبار موسى بهذا الطريق ونحوه .  
( ولكننا كنا مرسلين ) لك موخيل إليك تلك الآيات ونظائرهما ، ولولا ذلك ما علمتها وما أخبرتهم بها .

(٢) ( وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ) أى وما كنت بجانب الطور ليلة المناجاة وتكليم الله موسى حتى تحدث أخبارها وتفضل أحوالها حديث الخبير العليم بيواطن أمورها وظواهرها .

( ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بتلك الأخبار و بغيرها مما فيه صلاح البشر وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ، لتنذر قوما لم يأتهم قبلك نذير ، وتحذرم بأس الله وشديد عقابه على إشرائهم به وعبادتهم الأوثان والأنداد ، لعلهم يرجعون عن غيرهم ويتذكرون عظيم خطيئهم وكبير جرهم فيبسوا إلى ربهم ويقروا بوحدانيته ويفردوه بالعبادة دون سواه من الآلهة .

ثم ذكر الحكمة في إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، وأن في ذلك قطعا لمعذرتهم حتى إذا جاءهم بأسنا لم يجدوا حجة فقال :

( ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ) أى ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلناك إليهم حين يحل بهم بأسنا ويأتيهم عذابنا على كفرهم بربهم واجترأهم للمعاصي قيل أن ترسلك إليهم : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن يحل بنا سخطك وينزل بنا عذابك ، فنتبع أدلتك وأى كتابك التي تنزلها عليه ونكون من المؤمنين بألوهيتك المصدقين برسولك - لعاجلناهم العقوبة على شركهم ، لكننا بعثناك إليهم نذيرا بآسنا

كما هو سنتنا في أمثالهم كما جاء في الآية الكريمة : «لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» .

والخلاصة — إنا أزرنا العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك أيها الرسول إليهم ، وقد حكمنا بأننا لا نعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثة الرسل .

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) .

### شرح المفردات

الحق : أى الأمر الحق وهو القرآن ، سحران : أى ما أوتيه موسى وما أوتيه محمد ، تظاهرا : أى تعاونا وتناصرا ، فإن لم يستجيبوا لك : أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به ، والتوصيل : ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض قال شاعرهم :  
 قتل لبنى مروان ما بال ذمتى بجبل ضعيفٍ ما يزال يُوصَل  
 والمراد به هنا إنزال القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض .

### المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أنه إنما أرسل رسوله قطعا لمذرتهم حتى لا يقولوا حين نزول بأسنا بهم : هلا أرسلت إلينا رسولا فننتبعه — أردفه ببيان أنه حين يحىء

الرسول وإزال القرآن عليه جحدوا به وكذبوا رسالته ولم يعتدوا بكتابه وطلبوا محي  
معجزات كمعجزات موسى من محي التوراة جملة وقلب العصا وإخراج اليد بيضاء  
من غير سوء ، وقد كفر المعاندون من قبلهم بما جاء به موسى من المعجزات وقالوا :  
ما هي إلا سحر مفتري وما هي إلا أساطير الأولين وإن موسى ومحمدا ساحران تعاونا  
على الخداع والتضليل ، وإنا لكافرون بكل منهما .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إن استطعتم أن تأتوا بكتاب خير من كتابيها  
موصول إلى الحق هاد إلى سبيل الرشاد فافعلوا ، فإن لم تستطيعوا ذلك فأنتم متبعون  
اللهوى ، سالكون سبيل الضلال ، ولا أضل ممن يسلك هذه السبيل .  
ثم ذكر أنه ما أرسل الكتاب منجما على هذا النهج إلا ليكون فيه عبرة  
وذكرى لهم بين آن وآخر لعلمهم يرتدعون عن غيهم ويشوبون إلى رشدهم .

### الإيضاح

( فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ) أى فلما جاء  
محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله - بالكتاب الكريم  
قالوا تمرداً وعناداً وتنادياً فى النى والضلال : هلا أوتى مثل ما أوتى موسى من  
المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وتظليل الغمام إلى نحو أولئك .  
ثم ذكر أن هذه شئنة المعاندين فى كل زمان ، لا يريدون بما يقولون إظهار  
الحق بل يقصدون التماذى والإنكار ، ألا ترى أن من أرسل إليهم موسى قالوا مثل  
هذه المقالة كما أشار إلى ذلك بقوله :

( أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ ) أى إن المعاندين الذين مذهبهم  
كذهبكم وهم الكفار الذين كانوا فى زمن موسى كفروا بما جاء به موسى ، فأنتم  
متبعون نهجهم وسالكون سبيلهم .  
ثم بين طريق كفرهم به فقال :

( قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ) أى قالوا إن موسى ومحمدا ساحران

تعاوننا على الدَّجَلِ والتضليل وخداع الشَّدَجِ من الجماهير ، ولم يرسلهما ربهما لهداية البشر كما زعما ، وإنا لكافرون بكل منهما ولا تؤمن بما جاء به .  
 ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدى قومه بأن يأتوا بكتاب أهدى للبشر وأصلح لحالهم في المعاش والمعاد من التوراة والقرآن فقال :

( قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ) أى اتئونى بكتاب من عند الله أصلح لهداية البشر من التوراة والقرآن ، فإن جئتم به فإني لأتركهما وأتبع ما يحيئون به ، إن كنتم صادقين فيما تقولون ، جاديين فيما تدعون .

ثم توعدهم إذا هم نكصوا على أعقابهم ولم يطلبوا طلبه ولم يأتوا بالكتاب فقال :  
 ( فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ) أى فإن لم يفعلوا ما كلمتهم به فاعلم أنهم سادرون في غلوائهم ، متبعون لأهوائهم ، راكبون لرؤسهم ، حائدون عما يقتضيه الدليل والبرهان .

ثم بين عاقبة من يتبع الهوى فقال :

( ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ) أى ومن أضل عن طريق الرشاد وسبيل السداد ممن سار متبعاً الهوى بغير بيان من الله وعهد منه بما ينزله على رسوله بوحى منه .

وفى هذا من التشنيع عليهم وتقييح فعلهم ما لا يخفى على كل ذى لب .

ثم بين سنته تعالى فى خلقه فقال :

( إن الله لا يهدي القوم الظالمين ) أى إن الله لا يوفق لإصابة الحق واتباع سبيل الرشاد ، من خالفوا أمره ، وترنوا طاعته ، وكذبوا رسوله ، وبدلوا عهده ، واتبعوا هوى أنفسهم إشاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمن .

ولما أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بين الحكمة فى إنزال القرآن منجاً فقال :

( ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ) أى ولقد نزلنا عليهم القرآن متواصلًا

بعضه أثر بعض على ما تقتضيه الحكمة وترشد إليه المصلحة ، وهي أن يكون أقرب إلى التذكير والتنبية ، فهم في كل يوم يظلمون فيه على حكمة جديدة وفائدة زائدة فيكون ذلك أدمى إلى إيمانهم ورسوخه في نفوسهم وامتلأ قلوبهم نوراً به .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) .

### شرح المفردات

مسلمين : أى متقادين خاضعين لله ، يدرءون أى يدفعون ، واللغو : ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول ، سلام عليكم : أى سلام لكم مما أتم فيه ، لا نبتغي الجاهلين أى لا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل ، فجازيكم على باطلكم باطل مثله .

### المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه ، وموافقته لما في كتبهم من وصف ، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية في سبعين من التيسيين بعثهم النجاشي

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما قدموا عليه قرأ عليهم (يس والقرآن الحكيم) حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا .

## الإيضاح

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) أى الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب ، ثم أدرکوا محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا بالقرآن ، لأنهم قد وجدوا في كتبهم البشرى به ، وانطباق الأوصاف عليه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ » ، وقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

(وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) أى وإذا تلى هذا القرآن عليهم قالوا صدقنا بأنه نزل من عند ربنا حقا ، وقد كنا مصدقين به قبل نزوله ، لأننا وجدنا في كتبنا نعت محمد ونعت كتابه .  
وفى هذا إجماع إلى أن إيمانهم به متقدم العهد ، فأبأؤهم الأولون قرءوا في الكتب الأول ذكره ، وأبأؤهم من بعدهم فعلوا كما فعلوا من قبل نزوله .

ثم بين جزاءهم على إيمانهم به بعد إيمانهم بما سبقه من الكتب بقوله :  
(أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) أى هم يؤتون ثواب عملهم مرتين :  
مرة على إيمانهم بكتبهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمانين ، فإن تجشم مثل هذه المشاق شديدا على النفوس ، فقد يصيبهم من جزاء ذلك أذى من قومهم أو من المشركين في اتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

ونحو الآية قوله تعالى في شأنهم « يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » وفى الحديث الصحيح عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه

ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فزوجها » وروى أبو أمامة قال : إني لثمت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله مالنا وعليه ما علينا » .

ثم ذكر من أوصافهم ما يؤهلهم للزلفى والقرب من ربهم فقال :

(١) (ويدرون بالحسنة السيئة ) أى وهم يدفعون ما سمعوا من الأذى

والشتم بالصفح والعفو عنه .

(٢) (وعما رزقناهم ينفقون ) أى وينفقون مما أعطاهم الله من فضله من المال

الحلال النفقات الواجبة لأهلهم وذوى قربانهم ، ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم ، ويساعدون البائسين وذوى الحاجة المعوزين .

(٣) ( وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام

عليكم لا نبتغي الجاهلين ) أى وإذا سمعوا ما لا ينفع فى دين ولا دنيا من السب والشتم وتكذيب الرسول أعرضوا عن قائله ولم يخاطبوه ، وإذا سبه عليهم سبهه وكلهم بما لا ينبغى رده من القول لم يقابلوه بمثله ، إذ لا يصدر منهم إلا طيب الكلام وقالوا لنا أعمالنا لا نتأبون على شئ منها ولا تعاقبون ، ولكم أعمالكم لا نطالب بشئ منها ، فنحن لا نشغل أنفسنا بالرد عليكم ، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع ، فإننا لا نريد طريق الجاهلين .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِذَا مَرَّوْا بِاللَّغْوِ مَرَّوْا كِرَامًا » .

روى محمد بن إسحاق « أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً أوزيدون حين بلغهم خبره ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديةهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبتكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمنن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، ما رأينا ركبا أحق منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لانا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا .

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ  
تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) .

### شرح المفردات

الهداية : تارة يراد بها الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير وهي التي أثبتتها الله لرسوله في قوله « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب كما جاء في قوله : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا » وهي بهذا المعنى نفيت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ، يحبي إليه : أى يجمع إليه ، يقال جبي الماء في الحوض : أى جمعه ، والجالية : الحوض العظيم ، والخطف : الانتزاع بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد .

### المعنى الجملي

بعد أن أبان فيما سلف أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا به وجاءوا إليه زرافات ووحدانا من كل فج عميق وجابوا الفياق وقطعوا البحار للإيمان به ،

بعد أن سمعوا أخباره ، وترامت لهم فضائله وشماله ، وقد كان في هذا مفتح لقومه أن يؤمنوا به وأن تحدثه نفسه الشريفة بالطمع في إيمانهم ، ودخول الهدى في قلوبهم والانتفاع بما آتاه الله من العرفان ، فتكون لهم به السعادة في الدنيا والآخرة - أردف ذلك بالآية الأولى تسلية له صلى الله عليه وسلم إذ لم ينجع في قومه الذين يحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص - إنذاره وإبلاغه ، فيقبلوا ما جاء به ، بل أصروا على ما هم عليه وقالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ، فكانوا على عكس قوم هم أجنب عنه آمنوا بما جاء به وقالوا إنه الحق من ربنا .

وقد استفاضت الأخبار بأن الآية نزلت في أبي طالب ، فقد أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : « لما حضرت أبا طالب الوفاة أتاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا عمه : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة ، فقال : لولا أن تعيرني قريش ، يقولون ما حملة على ذلك إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك ، فأنزل الله (إنك لاتهدى من أحببت ) « الآية .

ونزل في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حين أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : نحن نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ونحن أكلة رأس ( يريد إنا قليلو المدد ) أن يتخطفونا - قوله تعالى : ( وقالوا إن تتبع الهدى ) الآية .

### الإيضاح

( إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ) أى إنك لاتستطيع هدى من أحببت من قومك أو من غيرهم هدى موصلا إلى البغية ، فتدخله في دينك وإن بذلت كل مجهود ، وإنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

ويعنى الآية قوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُشَاءُ » ، وقوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

(وهو أعلم بالمهتدين) أى وهو أعلم بالمستعدين للهداية فيمنحوها ، ومنهم الذين ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب دون من هم من أهل الغواية كقومك وعشيرتك . ثم أخبر سبحانه عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباعهم للهدى فقال :

(وقالوا إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أى وقالوا : نخشى إن اتبعنا ما حثت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى ويحاربونا ويحلوننا من ديارنا .

فرد الله عليهم مقالتهم وأبان لهم ضعف شبهتهم فقال :

(أولم تمكن لهم حرما آمنا يجي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟) أى إن ما اعتذرتم به لا يصلح أن يكون عذرا ، لأننا جعلناكم فى بلد آمن وحرم معظم منذ وجد ، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لكم حال كفركم وشرككم ولا يكون آمنا لكم وقد أسلعتم واتبعتم الحق ؟ قال يحيى بن سلام : كنتم آمنين فى حرمى ، تأكلون رزقى ، وتعبدون غيرى ، أفتخافون إذا عبدتمونى وآمنتم بى ؟ وقد تفضل عليكم ربكم وأطعم أهله من كل الثمرات التى تجلب من فجاج الأرض والمتاجر والأمتعة من كل بلد ، رزقا منه لكم .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى ولكن أكثرهم جهلة لا يفطنون إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ومن ثم قالوا ما قالوا ، وقد كان من حقهم أن يعلموا أن تلك الأرزاق إنما وصلت إليهم من ربهم ، فهو الذى يخشى ويتقى لاسواه من المخلوقين .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)

## شرح المفردات

بطرت: أى بغت وتجبرت ولم تحفظ حق الله، وأمها: أ كبرها وأعظمها، وهى قصبتهما (عاصمتها).

## المعنى الجملى

هذا هو الرد الثانى على شبهتهم، فإنه بعد أن بين ماخص به أهل مكة من النعم أتبعه بما أنزله على الأمم الماضية الذين كانوا فى رغد من العيش، فكذبوا الرسل، فأزال عنهم تلك النعم، وأحل بهم النقم.

وإجمال هذا - إن قولكم لا تؤمن خوفا من زوال النعم ليس بحق، بل الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذى يزيل هذه النعم.

ثم بين أن من سنته تعالى الأيهلك قوما إلا إذا أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين.

## الإيضاح

(وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى وكثير من القرى أثرى أهلها وسعوا فى الأرض فسادا و بطروا تلك النعم فخرّب الله ديارهم، وأصبحت مساكنهم خاوية لم يعمر منها إلا أقلها وصار أ كبرها خرابا يبابا.

ونحو الآية قوله: « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَادِقُونَ » (وكننا نحن الوارثين) لهم، إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ما يتصرفون فيه، والشئ إذا لم يبق له مالك معين قيل إنه ميراث الله، لأنه هو الباقى بعد خلقه.

ونحو الآية قوله: « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ».

ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لا يهلك أحدا إلا بعد الإنذار وقيام الحجة بإرسال الرسل فقال :

( وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا )  
 أى وما كانت سنته فى عباده أن يهلك القرى حتى يبعث فى كبرها رسولا يتلو  
 عليهم الآيات الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب حيناً والترهيب حيناً آخر، فيكون  
 ذلك أدعى إلى إتمام الحجة وقطع المعذرة .

وإنما كان البعث فى أم القرى ، لأن فى أهلها فطنة وكياسة ، فهم أقبل للدعوة  
 وأعرف بمواقع الحق ؛ إلى أن الرسول يبعث للأشراف كما يرسل إلى العامة ، وهم  
 يسكنون المدائن وهى أم ماحولها .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » .

ثم بين أنه لا يهلك القرى بعد إرسال الرسل إلا إذا ظلموا أنفسهم وكذبوا  
 رسولهم فقال :

( وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ) أى ولا نهلك القرى التى نبعث  
 فيها الرسل الذين يدعونهم إلى الحق ويرشدونهم إلى سبيل السداد إلا إذا ظلموا  
 بتكذيب الرسل وكفروا بالآيات ، فلا نهلك قرية بإيمان ، ولكن نهلكها بظلمها  
 واجترامها المعاصى وارتكابها الآثام ، وقوله : بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكتهم وهم  
 مصلحون لكان ذلك ظلماً منه ، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .

وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ  
 وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَا يَأْتِيهِ كَمَنْ  
 مِمَّنَّاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) .

## شرح المفردات

من المحضرين: أى الذين يُحَضَّرُونَ للعذاب ، وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال : « لَكُنْتُ مِنَ الْمُحَضَّرِينَ » وقال : « إِنَّهُمْ لَمَحَضَّرُونَ » لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والإلزام ، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس المنكار والمضار .

## المعنى الجملى

هذا هو الرد الثالث على تلك الشبهة ، فإن خلاصة شبهتهم أنهم تركوا الدين لثلاث تقوتهم منافع الدنيا ، فرد الله عليهم بأن ذلك خُرُق رأى وخطل عظيم ، فإن ما عند الله خير مما فيها لكثرة منفعه وخلوصه من شوائب المضار ، ومنافعها مشوبة ، وهو أبقى مما فيها ، لأنه دائم لا يقطع ، ومنافعها لا بقاء لها ، فمن الجهل الفاضح إذا ترك منافع الآخرة لاستيفاء منافعها ، ولا سيما إذا قرنت المنافع بعقاب الآخرة .

## الإيضاح

(وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى) أى وما أعطيتم أيها الناس من شيء من الأموال والأولاد ، فإمّا هو متاع تتمتعون به فى الحياة الدنيا وتزبون به فيها وهو لا يغنى عنكم شيئا عند ربكم ولا يجديكم شروى نقيير لديه ، وما عنده خير لأهل طاعته وولايته لدوامه وبقائه ، بخلاف ما عندكم فإنه ينفد وينقطع بعد أمد قصير .

ونحو الآية قوله « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وقوله : « بَلْ تُؤْتُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » ، وفى الحديث : « والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم ، فلينظر ماذا يرجع إليه ؟ » .

(أفلا تمقلون؟) أى أفلا عقول لكم أيها القوم تتدبرون بها فتعترفون الخير من الشر، وتختارون لأنفسكم خير المثلتين على شرهما، وتؤثرون الدائم الذى لانفاد له على الفانى الذى ينقطع، ومن أجل هذا أثر عن الشافعى رحمه الله أنه قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث للمشتغلين بطاعة الله تعالى - وكأنه رحمه الله أخذه من هذه الآية.

ثم أكد ترجيح ما عند الله على ما فى الدنيا من زينة بقوله:

(أفمن وعدناه وعدنا حسنا فهو لاقية كمن تمتعنا متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين؟) أى أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيانا بالجنة وجزيل نعيمها مما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، فأمن بما وعدناه وأطاعنا فاستحق أن ننجز له وعدنا فهو لاقية حتما وصائر إليه، كمن تمتعنا الحياة الدنيا ونسى العمل بما وعدناه به أهل الطاعة، وأثر لذة عاجلة على لذة آجلة لا تنقد، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله من المحضرين لعذابه؟ وألم عقابه؟

وهذه الآية تبين حال كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار، وحال كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة.

وخلاصة ذلك - أفمن سمع كتاب الله فصدق به وآمن بما وعده الله فيه، كمن تمتعنا متاع الحياة الدنيا وقد كفر بالله وآياته ثم هو يوم القيامة من المحضرين لعذابه - الجواب الذى لاثانى له - إنهما لا يستويان فى نظر العقل الزجيج؟

وتلخيص المعنى: إنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا قيل لهم: لو لم يحصل عقب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقضى بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وبعد هذه اللذة فيها يحصل العقاب الدائم.

وجاء الكلام بأسلوب الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ  
 الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هُوَ الَّذِي آغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا  
 تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ  
 فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ  
 يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْآبَاءُ يَوْمَئِذٍ  
 فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسَىٰ أَنْ يَكُونَ  
 مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) .

### شرح المفردات

حق : أى وجب وثبت ، والقول . أى مدلول القول ومقتضاه وهو قوله : «لَأَمْلَأَنَّ  
 جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» والغواية : الضلال والفعل غوى يغوى كضرب  
 يضرب ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يجيبوا ، عميت : أى خفيت ؛ والآباء : الحجج  
 التى تنجيهم ، يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على  
 نعمه - يكون وبالاعلى الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب - أردف ذلك ببيان  
 ما يحصل فى هذا اليوم من الإهانة والتفريع للمشركين حين يسألهم سؤالات يحارون  
 فى الجواب عنها ويشتم عليهم الخطب حين لا يجدون مخلصا ومعدرة تبررهم ما كانوا  
 يفترون فيسألهم أولا عن الآلهة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا من أصنام وأوثان ،  
 هل ينصرونهم أو ينتصرون ، ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم ردا ، ثم يسألهم  
 عما أجابوا به الرسل حين دعواهم إلى الإيمان برهبهم ، فتخفى عليهم الحجج التى

تنجيهم من العذاب الذى لامر لهم منه ، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضا عما يلقيه من حجة لهول الموقف واشتداد الخطب ، ثم ذكر بعدئذ حال المؤمنين برهم الذين عملوا صالح الأعمال ، وبين أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلا من ربهم ورحمة .

## الإيضاح

( ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ ) أى واذا كرأياها الرسول لقومك يوم ينادى رب العزة هؤلاء الذين يضلون الناس ويصدون عن سبيل الله فيقول لهم : أين شركائى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم لى شركاء - ليخلصوكم من هذا الذى نزل بكم من العذاب .

وهذا السؤال للإهانة والتحقير ، لأنهم عرفوا بطلان ما كانوا يفعلون .

ونحو الآية قوله « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ ، لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .

ثم ذكر جواب هؤلاء الرؤساء الدعاة إلى الضلال فقال :

( قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغويانا كأغويانا ) أى قال رموس الضلال والدعاة إلى الكفر الذين حق عليهم غضب الله ، ولزمهم الوعيد بقوله « لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » فدخلوا النار : ربنا إن هؤلاء الأتباع الذين أضللتناهم ، أغويانا باختيارهم كما غويانا نحن كذلك ، ولم يكن منا لهم إلا الوسوسة والتسويل لا القسر والإلجاء - فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال .

وخلاصة ذلك : إن تبعه عليهم واقعة عليهم لا علينا ، إذ لم نلجئهم إلى ذلك ، بل كان منا مجرد الوسوسة فحسب ، فإن كان تسويلنا لهم داعياً إلى الكفر ، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع من الأدلة العقلية ، وبعث إليهم من الرسل ، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر داعياً إلى الإيمان .

ونحو ذلك قوله حكاية عن الشيطان « إِنْ أَلَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسِكُمْ » وقوله لإبليس « إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » فقوله : إلامن اتبعك يدل على أن ذلك الاتباع من قبل أنفسهم ، لامن إلقاء الشيطان إلى ذلك .

ثم زاد الجملة الأولى تأكيداً بقوله :

( تَبَرُّأْنَا إِلَيْكَ ) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي اتباعاً لهوى أنفسهم ، فلا لوم علينا في الحقيقة بسببهم .

ونحو الآية قوله « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » .

ثم ذكر ما هو كالعلة لنفي الشبهة عنهم فقال :

( مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ) أي هم ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون الأوثان

بما زينت لهم أهواؤهم .

ثم طلب إليهم دعاء الشركاء توخيها لهم وتهكأ بهم فقال :

( وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ) أي وقيل للمشركين بالله الآلهة والأنداد في الدنيا : ادعوا آلهتكم الذين زعمتم جهلاً منكم شركتهم لله ، ليدفعوا العذاب عنكم ، فدعوهم لفرط الخيرة وغلبة الدهشة فلم يجيبوهم عجزاً منهم عن الإجابة

والمقصد من طلب ذلك منهم فضيحتهم على رؤوس الأشهاد بدعاء من لا نفع له ولا فائدة منه .

ثم بين حالهم حينئذ وتمنيهم أن لو كانوا وفقوا في الدنيا إلى سلوك طريق الهدى والرشاد فقال :

(ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى وأيقن الداعون والمدعون أنهم صاثرون إلى النار لا محالة ، وودّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين للمؤمنين في الدنيا .

ونحو الآية قوله « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِمُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَذَابًا مَضْرِبًا » .

وبعد أن سئلوا عن إشراكهم بالله توبيخا لهم ، سئلوا عن تكذيبهم للأنبياء كما أشار إلى ذلك بقوله :

(ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين؟) أى ويوم ينادى المشركين بهم وقد برز الناس في صعيد واحد ، منهم المطيع ومنهم العاصي ، وقد أخذ بأنفاسهم الرحام وترا كبت الأقدام على الأقدام ، فيقول لهم: ماذا أجبتم المرسلين فيما أرسلناهم به إليكم من دعائكم إلى التوحيد والبراءة من الأوثان والأصنام؟ .

ثم بين أنهم لا يحارون جوابا ، ولا يجحدون من الحجج ما يدافعون به عن أنفسهم فقال :

(فعميت عليهم الأنبياء يومئذ) أى فعميت عليهم الحجج ولم يجدوا معذرة يجهنون بها ، فلم يكن لهم إلا السكوت جوابا ، ثم ذكر أنه تخفى عليهم كل طرق العلم التي كانت تجديهم في الدنيا فقال :

(فهم لا يتساءلون) أى فلا يسأل بعضهم بعضا كما يتسائل الناس في المشكلات لما اعتراهم من الدهشة وعظيم الهول ، ولتساويهم جميعا في عمى الأنبياء عليهم والعجز عن الجواب .

وإذا كان الأنبياء لهول ذلك اليوم يتعتعون في الجواب عن مثل ذلك السؤال ويفوضون الأمر إلى علم الله كما قال «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» فما ظنك بهؤلاء الضلال؟

وبعد أن ذكر حال المعذبين من الكفار وما جرى عليهم من التوبيخ والإهانة أتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيباً في التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال :

(فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفاجين) أى فأما من تاب من المشركين ، وراجع الحق ، وأخلص لله بالأوهة ، وأفرد له العبادة ، وصدق نبيه ، وعمل بما أمره الله في كتابه على لسان نبيه ، فهو من الفائزين الذين أدرکوا طلبتهم وفازوا بجنات النعيم خالدين فيها أبداً .

وقد تقدم أن ذكرنا في كثير من المواضع أن (عسى) يراد بها في الكتاب الكريم الإعداد وتوقع حصول ما بعدها من الفوز والنجح لما طلبوا .

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَتْلُمُ مَا تَكْنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

### شرح المفردات

الخيرة والتخير: الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض ، سبحان الله : أى تنزيهاً لله أن ينازعه أحد في الاختيار ، تكن : أى تحفى ، ويعلمون : أى يظهرون ، الحكم : القضاء النافذ في كل شيء دون مشاركة لغيره فيه .

## المعنى الجملى

بعد أن وبجهم فيما سلف على اتخاذهم الشركاء ، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكما بهم وتقريعا لهم - أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ما أشركوه واصطفائهم إياه للعبادة ، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض ، واصطفائه على غيره من حق الله لا من حقكم أتم ، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتهموم للعبادة والشفاعة ، فما أتم إلا جهال ضلال .

## الإيضاح

( وربك يخلق ما يشاء ويختار ) أى وربك يخلق ما يشاء خلقه ، وهو وحده سبحانه دون غيره يصطفى ما يريد أن يصطفيه ويختاره ، فيختار أقواما لأداء الرسالة وهداية الخلق وإصلاح ما فسد من نظم العالم ، ويميز بعض مخلوقاته عن بعض ويفضله بما شاء ، ويجعله مقدما عنده ، وليس لهم إلا اتباع ما اصطفاه ، وهو لم يصطف شركاءهم الذين اختاروهم للعبادة والشفاعة ، فهاهم إلا فى ضلال مبين ، صدوا عن عمل ما يجب عليهم فعله طاعة لله ورسوله ، وتصدوا لما ليس من حقهم أن يفعلوه بحال .

ونحو الآية قوله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وقال الشاعر :

العبد ذو ضمير ، والرب ذو قدر      والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خالقنا      وفى اختيار سواه اللوم والشوم

وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال « اللهم خرنى واخترلى » وروى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق إليه قلبك ، فإن الخير فيه » .

ويستحسن ألا يقدم أحد على أمر من الأمور حتى يسأل الله الخيرة في ذلك ، بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفي الركعة الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

وعن جابر بن عبد الله قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودينياي ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به ، قال : ويسمى حاجته .

ثم أكد هذا وقرره بقوله :

( ما كان لهم الخيرة ) أى ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ، وله الخيرة عليهم ، فله أن يرسل من يشاء رسولا على حسب ما يعلمه من الحكمة والصلحة دون أن يكون ذلك منوطاً بمال أو جاه كما خيل إلى بعض المشركين فقالوا « لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ آلِ قُرَيْشٍ لَّيَكْفُرُوا بِهِ » .

ثم نزه سبحانه نفسه أن ينازعه في سلطانه أحد فقال :

( سبحانه الله وتعالى عما يشركون ) أى تنزيها له وعلوا عن إشراك المشركين ، فليس لأحد أن ينازع اختياره أو يزاوجه فيه ، لعلمه باستعداد خلقه وصلاحيتهم للاصطفاء ، فإذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدي أحداً ممن يحب ، أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظامتهم قال الله لهم : ليس لكم من الأمر شيء ، فلا انبى صلى الله عليه وسلم بقادر على هدى عمه ، ولا أهل مكة يصلون إلى أن تكون الرسالة في عظامهم .

ثم بين أن اختياره تعالى مبنى على العلم الصحيح لاختيارهم فقال :  
 ( وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ) أى إن اختياره من يختار منهم  
 للإيمان به مبنى على علم منه بسر أئامورهم وباديها ، فيختار للخير أهله فيوقفهم له ،  
 ويولى الشر أهله ويخلفهم وإياه .  
 ونحو الآية قوله «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف  
 بالليل وسار بالنهار» .  
 ولما كان علمه بذلك جاء من كونه لها واحداً فرداً حمداً ، وكان غيره لا يعلم من  
 من علمه إلا ما علمه قال :

( وهو الله لا إله إلا هو ) أى وهو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ولا يحيط  
 الواصفون بكنهه عظمته ، وهو العليم بكل شىء ، القادر على كل شىء .  
 ثم ذكر بعض صفات كماله فقال :  
 ( له الحمد فى الأولى والآخرة ) أى هو المحمود فى جميع ما يفعل فى الدنيا والآخرة ،  
 لأنه المعطى لجميع النعم عاجلاً وآجلاً .  
 ( وله الحكم ) النافذ فى كل شىء ، فلا معقب لحكمه ، وهو القاهر فوق  
 عباده ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .  
 ( وإليه ترجعون ) يوم القيامة فيجزى كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شراً ،  
 ولا يخفى عليه منهم خافية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
 مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ  
 اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُم  
 بَلْبَلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ  
 وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) .

## شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبروني ، والسرمذ : الدائم المتصل ، قال طرفه :  
 لعمرك ما أمرى على بقمة نهارى ولا ليلى على بسرمذ  
 تسكنون فيه : أى تستقرون فيه من متاعب الأعمال .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه المستحق للحمد على ما أولاه من النعم ، وتفضل به من  
 اللذن - أردف هذا بتفصيل ما يجب أن يحمد عليه منها ولا يقدر عليها سواه .

## الإيضاح

( قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم  
 بضياء ) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله : أيها القوم أخبروني إن جعل الله  
 عليكم الليل دائماً لانهارله يتبعه إلى يوم القيامة ، أى معبود غير الله يأتيكم بضياء النهار  
 فتستضيئون به ؟

وفى هذا الأسلوب من التبكيت والتقرع والإلزام ما لا يخفى .

( أفلا تسمعون ؟ ) ما يقال لكم سماع تدبر وتفكر فتتعضوا وتعلموا أن ربكم هو  
 الذى يأتى بالليل ويزيل النهار إذا شاء ، وإذا أراد أنى بالنهار وأذهب الليل ، ولا يقدر  
 على ذلك سواه .

( قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله  
 يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ ) أى أخبروني إن جعل الله عليكم النهار دائماً لا ليل معه  
 أبداً إلى يوم القيامة ، أى المعبودات غير الله الذى له عبادة كل شىء يأتيكم بليل  
 تستقرون فيه وتهذبون ؟

(أفلا تبصرون؟) الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، فتعلموا بذلك أن العبادة لاتصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره ، ومن له القدرة التي خالف بها بين الليل والنهار .

ثم بين أن المخالفة بينهما من فضله تعالى ورحمته فقال :

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ) أى ومن رحمته بكم أيها الناس جعل لكم الليل والنهار ، وخالف بينهما ، فجعل الليل ظلماً لتستقروا فيه راحة لأبدانكم من تعب التصرف نهاراً في شؤونكم المختلفة ، وجعل النهار ضياءً لتصرفوا فيه بأبصاركم لمعايشكم وابتغاء رزقه الذى قسمه بينكم بفضله .

(ولعلمكم تشكرون ) أى ولتستعدوا لشكره على إنعامه عليكم ، وتخلصوا له الحمد ، لأنه لم يشركه فى إنعامه عليكم شريك ، ومن ثم ينبغى ألا يكون له شريك يُحمد .

والخلاصة : إن الليل والنهار نعمتان تتعاقبان على مر الزمان ، والمرء فى حاجة إليهما ، إذ لاغنى له عن الكدح فى الحياة لتحصيل قوته ، ولا يتسنى له ذلك على الوجه المرضى لولا ضوء النهار ، كما لا يكفل له السعى على الرزق إلا بعد الراحة والسكون بالليل ، ولا يقدر على شىء من ذلك إلا الله الواحد القهار .

وجاء تذييل الآيتين بقوله ( أفلا تسمعون ؟ ) ، ( أفلا تبصرون ؟ ) لبيان أنهم

لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤)  
وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ  
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) .

## شرح المفردات

ونزعنا : أى أحضرنا من قولهم : نزع فلان بحجة كذا إذا أحضرها وأخرجها ، والشهيد : هو نبى الأمة يشهد عليها بما أجابته حين أرسل إليها ، وذل : أى غاب .

## المعنى الجملى

بعد أن وضح المشركين أولاً على فساد رأيهم فى اتخاذ الشركاء لله ، ثم ذكر التوحيد ودلائله - عاد إلى تقريرهم وتبكيتهم ثانياً ببيان أن إشرائهم لم يكن عن دليل صحيح ، بل كان عن بعض الهوى كما يرشد إلى ذلك قوله ( قل هاتوا برهانكم )

## الإيضاح

( ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ) أى ويوم ينادى ربك - أيها الرسول - هؤلاء المشركين ، فيقول لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى ليخلصوكم مما أنتم فيه .

وهذا النداء للتوبيخ والتقريع على رموس الأَشهاد على عبادة غير الله ، للاشعار بأنه لا شىء أجلب لغضبه تعالى من الإِشراك به ، كما أنه لا شىء أدخل فى مرضاته من توحيدِه عز وجل .

( ونزعنا من كل أمة شهيداً ) أى وأحضرنا من كل أمة شهيداً وهو نبيها الذى يشهد عليها بما أجابته أمته فيما آتاهم به عن الله برساليته .

ونحو الآية قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » .

وهذا فى موقف من مواقف القيامة ، وفى موقف آخر يكون الشهداء هم الملائكة

كما قال تعالى : « وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

ثم بين ما يطلب منهم بعد هذه الشهادة فقال :

( فقلنا هاتوا برهانكم ) على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء مع إعداء الرسل

إليكم ، وإقامة الحجج عليكم ، فلم يجبروا جوابا ، وأيقنوا حينئذ بعذاب دائم ، ونار تتلظى ، لا يصلها إلا الأشقي الذي كذب وتولى .

وحينئذ يستبين لهم خطأ ما كانوا يفعلون كما قال :

( فاعلموا أن الحق لله ) أي فعلوا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم ، وأن خبره

هو الصادق ، وأنه لا يشركه في الألوهية شيء .

( وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أي وغاب عنهم ما كانوا يتخرون به في الدنيا

ويكذبون به على ربه من الأباطيل والأضاليل .

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ

مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ

لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ

نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي

الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي

أَوَّلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) .

## شرح المفردات

فبغى عليهم : أى تكبير وتجوهر ، والككنز: المال المدفون فى باطن الأرض ، والمراد به هنا المال المدخر ، ومفاتهحه : أى خزائنه واحدها مفتوح ( بفتح الميم ) وتنوء : من نام به الحمل ينوء : إذا أثقله حتى أماله . قال ذو الرمة :

تنوء بأخراها فلأياً قيامها وتمشى الهوينى عن قريب فتبهر

والعصبة : الجماعة الكثيرة يتعصب بعضهم لبعض بلا تعيين عدد خاص ، والقوة : الشدة ، لانفرح ، أى لا تبطر وتمسك بالدينيا ولذاتها حتى تنلهى عن الآخرة ، قال يهس العذرى :

ولست بمفراح إذا الدهر سرقى ولا جازع من صرفه المتقلب

والدار الآخرة : أى ثواب الله بإنفاق المال فيما يوصل إلى مرضاته ، على علم عندى : أى على حسن التصرف فى المتاجر واكتساب الأموال .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حديث أهل الضلالة وما يلقونه من الإهانة والاحتقار يوم القيامة ، ومناداتهم على رءوس الأشهاد بما يفضحهم ويبين لهم سوء مغبتهم . أعقبه بقصص قارون ، ليبين عاقبة أهل البغى والجبروت فى الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالحسف ، وزلزلت به الأرض ، وهوت من تحته ، ثم أصبح مثلاً يضرب للناس فى ظلمه وعتوه ، ويستبين لهم من سوء عاقبة البغاة ، وما يكون لهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة . والندم على ما فعلوا :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

## الإيضاح

(إن قارون كان من قوم موسى) أى إنه كان من بنى إسرائيل ، لأنه ابن عم موسى ، فوسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام ، وقارون بن يضر بن قاهث الخ .

وكان يسمى النور لحسن صورته ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، وأقرأهم لها ، لكنه نافق كما نافق السامرى وقال : إذا كانت النبوة لموسى ، والمذبح والقربان لهرون ، فما لى إذا ؟

(فبغى عليهم) أى تجاوز الحد فى احتقارهم . والقراية كثيراً ما تدعو إلى البغى ثم ذكر سبب بغيه وعتوه بقوله :

(وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى وأعطيناه المال المذخور الذى يشغل حمل مفاتيح خزائنه على العدد الكثير من الأقوياء من الناس . روى عن ابن عباس أن مفاتيح خزائنه كان يحملها أربعون رجلاً من الأقوياء ، وكانت أربعمائة ألف يحمل كل رجل عشرة آلاف ، ولا شك أن مثل هذا التحديد يحتاج إلى سند قوى يعسر الوصول إليه ، ومثل هذا الأسلوب يدل على إرادة الكثرة دون تحديد شيء معين .

وبعد أن ذكر بغيه ذكر وقته فقال :

(إذ قال له قومه لا تفرح) أى إنه أظهر التفاخر والفرح بما أوتى حين قال له قومه من بنى إسرائيل : لا تظهر الفرح والبطر بكثرة مالك ، فإن ذلك يجعلك تتكالب على جمع حطام الدنيا ، وتلهى عن شئون الآخرة ، وفعل ما يرضى ربك . ثم علل النهى عن الفرح بكونه مانعاً بحبة الله فقال :

(إن الله لا يحب الفرحين) أى إنه تعالى لا يكرم الفرحين بزخارف الدنيا

ولا يقرّبهم من جواره ، بل يبغضهم ويبعدهم من حضرته .

وأثر عن بعضهم أنه قال : لا يفرح بالدينيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، أما من يعلم أنه سيفارقها عن قريب فلا يفرح بها ، وما أحسن ما قال النبي :

أشدُّ النعم عندى فى سرورٍ تيقن عنه صاحبه انتقالا  
وأحسن منه وأوجز قوله سبحانه : « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا  
بِمَا آتَاكُمْ » .

ثم نصحوه بعدة نصائح فقالوا :

(١) (وابتغ فيا آتاك الله الدار الآخرة) أى واستعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة فى طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

(٢) (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى ولا تترك حظك من لذات الدنيا فى ما كلفها ، ومشاربها وملابسها ؛ فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، وروى عن ابن عمر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وعن الحسن : « قدم الفضل وأمسك ما يبلغ »  
(٣) (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى وأحسن إلى خلقه ، كما أحسن هو إليك فيما أنعم به عليك ، فأعِنْ خلقه بما لك وجاهك ، وطلاقة وجهك ، وحسن لقائهم ، والثناء عليهم فى غيبتهم .

(٤) (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى ولا تصرف همتك بما أنت فيه إلى الفساد فى الأرض ، والإساءة إلى خلق الله .

ثم أتبعوا هذه المواعظ بعلتها فقالوا :

(إن الله لا يحب المفسدين) أى إن الله لا يكرم المفسدين ، بل يهتهم ويبيدهم من حظيرة قربه ، ونيل مودته ورحمته .

ثم بين أنه مع كل هذه المواظب أبي وزاد في كفران النعمة فقال :

( قال إنما أوتيته على علم عندي ) أي قال قارون لمن وعظوه : إنما أوتيت هذه الكنوز لفضل علم عندي ، علمه الله مني ، فرضى بذلك عني ، وفضلني بهذا المال عليكم .

وتلخيص ذلك : إني إنما أعطيته لعلم الله أني له أهل .

ونحو الآية قوله « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » .

ثم رد الله عليه مقاله بقوله :

( أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ) أي أنسى ولم يعلم ، حين زعم أنه أوتي الكنوز لفضل علم عنده ، فاستحق بذلك أن يؤتى ما أوتي ؟ أن الله قد أهلك من قبله من الأمم ، من هم أشد منه بطشاً ، وأكثر جمعاً للأموال ؟ ولو كان الله يؤتى الأموال من يؤتیه لفضل فيه وخير عنده ورضاه عنه ، لم يهلك من أهلك من أرباب الأموال ، الذين كانوا أكثر منه مالا ، لأن من يرضى الله عنه ، فحاله أن يهلكه وهو عنه راض ، وإنا يهلك من كان عايبه ساخطاً ، ألم يشاهد فرعون وهو في أبهة ملكه ، وحقق أمره يوم هلكه . وفي هذا الأسلوب تعجيب من حاله ، وتوبيخ له على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك .

و بعد أن هدده سبحانه بذكر إهلاك من قبله من أضرابه في الدنيا - أردف ذلك بتهديد المجرمين كافة بما هو أشد من عذاب الآخرة وهو عدم سؤالهم عن ذنوبهم ، إذ أنه يؤذن بشدة الغضب عليهم ، والإيقاع بهم لاحالة ، فقال : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » أي إنه تعالى حين إرادة عقابهم لا يسألهم عن مقدار ذنوبهم

ولا عن كتبها ، لأنه عليم بها ، ولا يأتبهم عليها كما قال تعالى : « وَمَا هُمْ مِنْ أَعْتَبِينَ »  
وقال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » .

ونحو الآية قوله « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » .  
وهذا لا يمنع أنهم يسألون سؤال تفريع وإهانة ، كما جاء في قوله : « قَوْرَبُكْ  
لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

فَفَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ  
لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَيَا لَذُو الْعِلْمِ  
وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا  
الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ . فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ  
يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا  
مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْ سَاءَ مَا كَانَّ اللَّهُ يَدْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ  
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْ سَاءَ مَا كَانَهُ لَا يُفْلِحُ  
الْكَافِرُونَ (٨٢) .

### شرح المفردات

الخط : البخت والنصيب ، العلم : هو علم الدين ، وما ينبغى أن يكون عليه  
المتقون ، ويل : أصلها الدعاء بالهلاك ، ثم استعملت في الزجر عن ترك ما لا يرتضى ،  
وخسف المكان : أى غار في الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا : غاب به فيها  
كما قال : « خَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وفئة : أى جماعة من المنتصرين ؛

أى الممتنعين عن عذابه ، يقال : نصره من عدوه فانصر : أى منعه منه فامتنع ،  
وى : كلمة يراد بها التندم والتعجب مما حصل ، يقدر : أى يضيق بالشر والظلمة ،

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بنى قارون وعتوه وجبروته ، وكثرة ما أوتيه من المال  
الذى تنوء به العصابة أولو القوة - أردف ذلك بتفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه ،  
فذكر أنه خرج على قومه ، وهو فى أبهى حُلْيَةٍ وحُلَّة ، والعدد العديد من أعوانه  
وحشمه ، قصداً للتعالى على العشيرة ، وأبناء البلاد ، وفى ذلك كسر للقلوب ، وإذلال  
للنفوس ، وتفريق للكامة ، فلا تربطهم رابطة ، ولا تجمعهم جامعة ، فيذلون فى  
الدينا بانقضاض الأعداء عليهم ، وتفريقهم شذراً مذرّاً ، وقد غرت هذه المظاهر بعض  
الجهال الذين لا هم لهم إلا زخرف الحياة وزينتها ، فتمنوا أن يكون لهم مثلها ، فرد  
عليهم من وفقهم الله لهدايته بأن ما عنده من النعم لمن اتقى خير مما أوتى قارون  
ولا يناله إلا من صبر على الطاعات ، واجتنب المعاصى ، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل  
إليه أمره من خسف الأرض به وبداره ، ولم يجد معيناً ينصره ويدفع العذاب عنه ،  
وقد انقلب حال الممتنين المعجبين بحاله إلى متعجبين مما حل به ، قائلين : إن الله  
يسبط الرزق لمن يشاء من عباده ؛ لافضل منزلته عنده وكرامته لديه كما يسبط لقارون  
ويضيق على من يشاء ، لا لهوانه عليه ولا لسخط عمله ، ولولا أن تفضل علينا  
فصرف عنا ما كنا تبتناه بالأمس نخسف بنا الأرض .

### الإيضاح

( فخرج على قومه فى زينته ) أى فخرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ،  
وتجمل باهر من سراكب وخدم وحشم ، يريد بذلك التعالى على الناس ، وإظهار  
العظمة ، وذلك من الصفات البغيضة ، والافتخار المقوت ، والخيلاء الذمومة لدى

عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوِّض كيان المجتمع ، وتفسد نظمه ، وتفرق شمل الأمة ، وتقسّمها طبقات ، وفي ذلك تمّازها ، وطعم العدو في امتلاك ناصيتها .

وفي هذا تحذير لنا أيما تحذير ، فكثير من يظهرون النعم ، إنما يريدون التعالى والتفاخر ، وهم بمن يقيم الزينات ، أو يصنع اللآثم لمُرْس أو ماتم ، لا يريد بذلك إلا إظهار ثرائه ، وسعة ماله بين عشيرته وبنى جلدته ، فيكون فارون زمانه ، وتكون عاقبته الحسف لما أوتيه من مال ، ويذهب الله ثراه ، ويحمله عبرة لمن اعتبر .

فإن الكتاب الكريم ما قص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالى ليس وبالها في الآخرة فحسب ، بل يحصل شوْهما في الدنيا قبل الآخرة ، كما حصل لكثير من المسلمين اليوم .

وقد روى عن مفسري الساف في زينة فارون ما يجعلنا نقف أمامه موقف الخذر ، ويجعلنا نمتد أن الإسرائيليات سداه وطمته ، فمن ذلك ما روى عن قتادة قال : ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه ، على أربعة آلاف دابة ، عليهم ثياب حر منها ألف بغلة بيضاء ، وعلى دوابهم قطائف الأرجوان . وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول ، وعليهم الثياب الأرجوانية ، ومعه ثلاثمائة جارية بيض ، عليهن الخلى والثياب الحر يركبن البغال الشهب .

وحين رآه قومه على هذه الشاكلة انقسموا فرقتين :

(١) قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى فارون إنه لذو حظ عظيم ( أي قال من كان همه الدنيا وزينتها : ياليت لنا من الأموال والمتاع مثل ما لفقارون منها ، حتى نتم عيشاً ، ونتمتع بزخارف الحياة ، كما يتمتع

وإن مثل هذا التمني ليشاهد كل يوم ، وفي كل بلد ، وفي كل قرية ، فترى الرجل والشاب ، والمرأة والفتاة ، يتمنى كل منهم أن يكون له مثل ما أوتى فلان

وفلانة من ثوب جميل ، أو دابة فارحة ، أو مزرعة يحمدها غلتها ، أو قصر مشيد ، أو نحو ذلك .

ثم عللوا تمنيمهم وأكدهه بقولهم :

( إنه لنوحظ عظيم ) أى إن الله قد تفضل عليه ، وآتاه من بسطة الرزق حظاً عظيماً ونصيبةً كبيراً يقبض عليه .

والقاتلون هذه المقالة : إما جماعة من المؤمنين قالوا ذلك جرياً على الجملة البشرية من الرعية فى السعة واليسار ، وإما عصابة من الكفار والمنافقين تمنوا مثل ماله ، ولم يتمنوا زوال نعمته ، ومثل هذا لا ضرر فيه .

(٢) ( وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ) أى وقال الذين أوتوا العلم بما أعد الله لعباده فى الآخرة وصدقوا به ردّاً على أولئك التمنين : تبئاً لكم وخسراً ، كيف تتفألون فى طلب الدنيا ، ويسيل لعابكم عليها ، وما عند الله من ثواب فى الآخرة لمن صدق به ، وآمن برسله ، وعمل صالح الأعمال خير مما تمنون ، فإن هذا باق ، وذاك فان ، وهذا خالص مما يشوبه وينقصه من الأكدار ، وذلك مشوب بالأحزان والمنقصات .

ثم بين من يعمل بهذه النصيحة فقال :

( ولا يلقاها إلا الصابرون ) أى ولا يتبع هذه النصيحة ، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المحرمات ، ورضى بقضاء الله فى كل قسم من المنافع والمضار ، وأنفق ماله فى كل ما فيه سعادة لنفسه وللمجتمع ، وكان قدوة صالحمة فى حفظ مجد أمته ، ورفع صيتها بين الأمم ، ببذل كل ما فيه نفعها وقوتها ، وإعلاء شأنها ، وبذا ينال حسن الأحدثوة بين الناس ، ويلقى الثوبة من ربه .

ثم ذكر ما آل إليه بطره وأشره من وبال ونكال فقال : ( إن الله يفتن القوم بما هم كاشفون ) ( نحسفنا به وبداره الأرض ) أى فوزلت به الأرض وابتلعته جزاء بطره وعتوه ،

وفي هذا غير ما من اعتبر ، فبترك التعالى والتغالي في الزينة ، لئلا يخسف الله به  
وعمله الأرض .

وقد غفل كثير من الناس عن المقصد من المال فانفقوه قاصدين به الرياء والمباهاة ،  
فضاعت دورهم وأموالهم ، وأصبحت ملكا لغيرهم ، وهذا هو الخسف العظيم ؛ وما خسف  
قارون بشيء إذا قيس بهذا ، فإن الخسف الآن خسف الأمم ، لا خسف الأفراد ،  
فكل بلد من بلاد الإسلام يدخله الغاصب يصبح أهله عبيداً له وضحية مطامعه ،  
وخسف أمة أدهى من خسف فرد ، فليخسف الفرد ، وانثبq الأمة ، وهكذا دخلت  
البلاد تباعا في ملك الغاصب ، واحدة إثر أخرى ، ولم يبق منها إلا من رحم الله ،  
وما ذاك إلا جهلها لدينها ، وعدم اتباعها أحكامه ، وغفلتها عن مقاصده .

ثم بين أنه لم يجد له شقيعاً ولا نصيراً يدفع عنه العذاب حينئذ فقال :

( فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ) أى ما أختي  
عنه ماله ، ولا خدمه ولا حشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله ولا نكاله ، ولا استطاع  
أن ينتصر لنفسه .

وقصارى ذلك : إنه لا ناصر له من غيره ولا من نفسه ، فكيف يكون للأمة  
العاقلة عن أوامر دينها ، الجاهلة بمقاصد شريعته في إنفاق الأموال أن تجد مناصاً من  
خراب الديار ، وإضاعة الجهد الطارف والتالد ، وأن تقع فريسة للغاصبين ، الذين  
يسومونها الخسف دون شفقة ولا رحمة ، وقد كانت ذلك جزاء وفاقاً ، لجهلها وسوء  
تصرفها ، وظلمها لأنفسها ، ولا يظلم ربك أحداً ، وهكذا حال من تصرف في ماله  
تصرف السفهاء ، وركب زاسة ، وصار يبعثه يمنة ويسرة ، فإنه سيندم ولات  
ساعة مندم .

وقد أبان الكتاب أن النصر للصابرين ، فهو أثر لازم للصبر على حفظ المال ،  
وحفظ الشهوات والعقول ، وكل الفضائل التي حث عليها الدين ، وسلك سبيلها  
السلف الصالح .

وقد حكي المفسرون في أسباب الخسف أمورا كثيرة هي غاية في الغرابة يبعد أن تصدقها العقول ، ومن ثم قال الرازي : إنها مضطربة متعارضة ، فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب اه .  
ولما شاهد قوم قارون ما نزل به من العذاب ، صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى ، وداعياً إلى الرضا بقضاء الله وبما قسمه ، وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبيائه ورسوله ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وي كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى فلما خسف الله بقارون الأرض ؛ أصبح قومه يقولون : إن كثرة المال والتمتع بزخارف الدنيا، لا تدل على رضا الله عن صاحبه ؛ فإله يعطى ويمنع ، ويوسع ويضيق ، ويرفع ويخفض ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، لا معقب لحكمه .  
وقد روى عن ابن مسعود سرفوعاً « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » .

ولما لاح لهم من واقعة أمره أن الرزق بيد الله يصرفه كيف يشاء ، أتبعوه بما يدل على أنهم اعتقدوا أن الله قادر على كل ما يريد من رزق وغيره فقالوا :  
(لولا أن من الله علينا لخسف بنا كما خسف به ، لأننا وددنا أن نكون مثله . ثم زادوا ما سبق تأكيداً بقولهم :  
(وى كأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله المكذبون برسوله وبما وعدوا به من ثواب الآخرة ، كما كان شأن قارون .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قول أهل العلم بالدين : ثواب الله خير - أعقب ذلك بذكر محل هذا الجزاء ، وهو الدار الآخرة ؛ وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يترفعون على الناس ، ولا يتجبرون عليهم ، ولا يفسدون فيهم ، يأخذ أموالهم بغير حق ، ثم بين بعدئذ ما يحدث في هذه الدار ؛ جزاء على الأعمال في الدنيا ، فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ؛ إلى ما لا يحيط به الإعلام القيوب ، فضلا من الله ورحمة ؛ وجزاء السيئة مثلها ، لظفا منه بعباده ، وشفقة عليهم .

## الإيضاح

( تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ) أى تلك الدار التي سمعت خبرها ، وبلغت وصفها - نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق وإعراضاً عنه ، ولا ظلم الناس ومعصية الله .

وثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » . وروى مسلم وأبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » .

وروى أبو هريرة : « أنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان جميلا ، فقال : يا رسول الله إني رجل حبيب إلى الجمال ؛ وأعطيت منه ما ترى ؛ حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك نعل ؛ أفمن ذلك ؟ قال : لا ؛ ولكن المتكبر من بطر الحق وغمط الناس » .

وعن عدى بن حاتم قال : « لما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم أتى إليه وسادة

وجلس على الأرض ؛ فقال : أشهد أنك لا تبغى علوا في الأرض ولا فساداً فأسلم .  
أخرجه ابن مردويه .

(والعاقبة للمتقين ) أي والعاقبة المحمودة ، وهي الجنة لمن اتقى عذاب الله بعمل الطاعات ، وترك المحرمات ، ولم يكن كفرعون في الاستكبار على الله ، بعدم امتثال أوامره ، والارتداع عن زواجه ، ولا كفارون في إرادة الفساد في الأرض .

ثم بين ما يكون في تلك الدار من جزاء على الأعمال فقال :  
(من جاء بالحسنة فله خير منها) أي من جاء الله يوم القيامة بحسنة فله خير منها، فهو يضاعفها له أضعافاً مضاعفة تفضلاً منه ورحمة .

(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ) أي ومن أتى بسيئة فلا يجزى عليها إلا مثلها ، وهذا منه سبحانه شفقة وعدل .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ » .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَنْ يُبَلِّغَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدُوِّكَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

## شرح المفردات

فرض عليك : أى أوجب عليك ، ومعاد الرجل : بلده ، لأنه يتصرف في البلاد ثم يعود إليه ، ظهيراً : أى معينا ، هالك : أى معدوم ، وجهه : أى ذاته ، الحكم : أى القضاء النافذ .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص موسى وقومه مع قارون ، وبين بنى قارون واستطالته عليهم ثم هلاكه ، ونصرة أهل الحق عليه أردف هذا بقصص محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع قومه ، وإيدائهم إياه ، وإخراجهم له من مسقط رأسه ، ثم إعزازه إياه بالإعادة إلى مكة ، وفتحها إياها منصوراً ظافراً .

## الإيضاح

(إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى إن الذى أوجب عليك العمل بأحكام القرآن وفرائضه - لرادك إلى محل عظيم القدر اعتدته وألفته ، وهو مكة ، والمراد بذلك عوده إليها يوم الفتح ، وقد كان للعود إليها شأن عظيم ، لاستيلاء رسول الله عليها عنوة ، وقهره أهلها ، وإظهار عز الإسلام ، وإذلال المشركين . وهذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً .

روى مقاتل أنه عليه السلام خرج من الغار (حين الهجرة) وسار فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال له : اشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال عليه السلام : نعم ، فقال جبريل :

فإن الله يقول : ( إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ) ( البقرة )

وهذه إحدى معجزاته صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر :

ولما قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ( إنك لفي ضلال مبين )

نزل قوله تعالى :

( قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ) أى قل لمن

خالفك وكذبك من قومك المشركين ومن تبعهم : ربى أعلم بالبهتدى منى ومنكم ،

وستعملون من تكون له عاقبة الدار ، ومن تكون له النقلة والنصرة فى

الدنيا والآخرة ؟ .

ثم ذكره سبحانه نعمه ، ونهاه عن معاونة المشركين ومظاهرتهم فقال :

( وما كنت ترجو أن يأتى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ) أى وما كنت

ترجو أيها الرسول أن ينزل عليك القرآن ، فتعلم أخبار الماضين من قبلك ، وما يتحدث

من بعدك ، وما فيه من تشريع ، فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ؛ وأدب هى

منتهى ما تسمو إليه نفوسهم وتطمح إليها عقولهم ؛ ثم تلو ذلك على قومك ، وليسكن

ربك رحمتك فأنزله عليك .

ثم بين ما يجب أن يعمل كفاء هذه النعم المتظاهرة فقال :

( فلا تكونن ظهيرا للكافرين ) أى فاحمد ربك على ما أنعم به عليك بإزاله

الكتاب إليك ؛ ولا تكونن عوناً لمن كفروا بربك ؛ وليسكن فارقتهم وناذهم .

ثم شدد عزمه وقواه بالأى به بمخالفتهم فقال :

( ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ) أى ولا تبال بهم ؛ ولا تهتم

بمخالفتهم لك ؛ وصدهم الناس عن طريقتك ، فإن الله معك ومؤيدك ؛ ومظاهر ما أرسلك

به على سائر الأديان .

ثم أمره أن يصدع بالدعوة ؛ ولا يألو جهداً فى تبليغ الرسالة فقال :

(وادع إلى ربك) أى وبلغ رسالة ربك إلى من أرسلك إليهم ؛ وأعبده  
وحده لا شريك له .

(ولا تسكونن من المشركين) أى ولا تتركن الدعاء إلى ربك وتبليغ المشركين  
رسالتك ، فتكونن ممن فعل فعل المشركين بمعصية ربه وخلافه أمره .  
ثم فسر هذا وبينه بقوله :

(ولا تدع مع الله إلها آخر) أى ولا تعبد أيها الرسول مع الله الذى له عبادة كل  
شئ - معبودا آخر سواه .

ثم علل هذا بقوله :

(لا إله إلا هو) أى لأنه لا معبود تصلح له العبادة إلا الله ، ونحو الآية قوله :  
« رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .  
ثم بين صفاته فقال :

١ - ( كل شئ هالك إلا وجهه ) أى هو الدائم الباقي الحى القيوم الذى  
لا يموت إذا ماتت الخلائق ، كما قال : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ  
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها ليبيد : « ألا كل شئ ما خلا الله باطل » .

٢ - ( له الحكم ) أى له الملك والتصرف والقضاء النافذ فى الخلق .

٣ - ( وإليه ترجعون ) يوم معادكم ، فيجزىكم بأعمالكم إن خيرا فخير ،  
وإن شرا فشر .

وصل ربنا على محمد وآله .

## خلاصة ما تحويه السورة الكريمة من الأغراض

- (١) استعلاء فرعون وفساده في الأرض .
- (٢) استضعافه بنى إسرائيل وقتله أبناءهم واستمقاؤه لنساءهم .
- (٣) منته تعالى على بنى إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون وجعلهم أئمة في أمر الدين والدنيا ووراثتهم أرض الشام .
- (٤) إغراق فرعون وجنوده .
- (٥) إلقاء موسى في اليم ، والتقاط آل فرعون له ، ثم رده إلى أمه .
- (٦) قتل موسى للقبطى ، ثم هربه إلى أرض مدين ، وتزوجه بينت كاهنها ، وبقاؤه بها عشر سنين .
- (٧) عودة موسى إلى مصر ، ومناجاته ربه .
- (٨) معجزات موسى من العصا واليد البيضاء .
- (٩) طلبه من ربه أن يرسل معه أخاه هرون ليكون له وزيراً وإجابته لي ذلك .
- (١٠) تبليغه رسالة ربه إلى فرعون ، وتكذيب فرعون له ، واستكباره في الأرض بغير الحق .
- (١١) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخباره عن قصص الماضين ، دون أن يكون حاضراً معهم ، ولا أن يتعلم ذلك من معلم .
- (١٢) إنكار قریش لنبوته ، بعد أن جاءهم بالحق من ربهم ، وقولهم إن ما جاء به سحر مفترى .
- (١٣) إيمان أهل الكتاب بالقرآن وإعطائهم أجرهم مرتين .
- (١٤) إثبات أن الهداية بيد الله ، لا بيد رسوله ، فلا يمكنه أن يهدى من يجب .

(١٥) معاذير قریش فی عدم إيمانهم بالرسول صلی الله علیه وسلم ، ثم دحضها .

(١٦) بیان أن الله لا يعذب أمة إلا إذا أرسل إليهم رسولا ، حتى لا يكون لهم

حجة على الله .

(١٧) نداء المشركين على رؤوس الأشهاد ، وأمرهم بإحضار شركائهم ونداؤهم ،

ليسألهم عما أجابوا به الرسل ، فلم يستطيعوا لذلك ردا .

(١٨) بيان أن اختيار الرسل لله ، لا للمشركين ، فهو الذي يصطفى من

يشاء لرسالته .

(١٩) التذكير ب نعمته على عباده باختلاف الليل والنهار .

(٢٠) شهادة الأنبياء على أممهم .

(٢١) ذكر قارون وبغيه في الأرض ، ثم خسف الأرض به .

(٢٢) بيان أن ثواب الآخرة لا يكون إلا لمن لا يريد العلو في الأرض

ولا الفساد فيها .

(٢٣) مضاعفة الله للحسنات ، وجزاء السيئة بمثلها .

(٢٤) الإنبياء بالغيب عن نصر الله لرسوله ، وفتح مكة .

(٢٥) بيان أن كل من في الوجود فهو هالك ، إلا الله تبارك وتعالى .